محمد بن ناصر العبودي
قصة سفر في
نيجيريا
الجزء الثاني
الطبعة الأولى
١٤١٥هـ-١٩٩٥م

قصة سفر في

نيجيريا

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

الجزء الثاني

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

المستودع الدعوي الرقمي
Osoul Center For Studies
https://dawa.center

ⓒ محمد بن ناصر العبودي، ١٤١٥هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية

العبودي، محمد بن ناصر.

قصة سفر في نيجيريا.

٢٠٤ ص ؛ ١٧ سم

ردمك ٦-٢٤-٧٨٥-٩٩٦٠(مجموعة)

x- ١٩-٧٨٥-٩٩٦٠ (مج ٢)

١- الرحلات ٢- نيجيريا - وصف رحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٠,٤ ١٥/٠٦٣٩

رقم الإيداع: ١٥/٠٦٣٩

ردمك: ٦-٢٤-٧٨٥-٩٩٦٠ (مجموعة)

x - ١٩-٧٨٥-٩٩٦٠ (مج ٢)

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

بدر
بسم الله الرحمن الرحيم

بلاد الهوسا (الحوس)

الحوس أو الهوسا:

الهوسا هم سكان شمال نيجيريا وكان المؤرخون القدماء الذين كتبوا أخبارهم بالعربية يسمونهم (الحوس) وقد تطور هذا الاسم فأصبح (الهوسا) ولغتهم هي الهوساوية.

وكانت لهم ممالك مستقلة بل قالوا في أساطيرهم أنه كان لهم ملوك سبعة عظام وأن ملوكهم السبعة هؤلاء كانوا من ذرية رجل عربي جاء من بغداد.

وهذه دعوى لهم ربما كانت مستوحاة من القول بأن البربر كانوا من اليمن وإنما سبب مجيئهم هو أن أحد التابعة غزا افريقية فتخلف بعض جنده فيها فكانوا ذريتهم، ومن أهم مدنهم في الوقت الحاضر (كنو) وكدونا.

قال عبد الله أخو الشيخ عثمان دان فودي المشهور من قصيدة[1]:

ونحن على الإسلام جمع تناصروا
ولسنا بشئ غيره نترفع

قبائل إسلام فتَوْرب حَيّنا
فلاتينا (حوْ سيُنا) الكل مجْمع

---

(١) انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ص ١٠٧.

وفـينا سـواهم من قـبـائل جُمّعت
على نصـر دين الله كـان التّجَمُع

بنوتور أخـوال الفـلاتين إخـوة
لعرب فمن روح ابن عيص تَفَرّعوا

وعـقـبـة جَدٌ للفـلاتين من عـرب
ومن تورب كـانت أمـهم هي تجـمع

فقوله «حوسينا» يريد بهم الهوسا. وفلاتينا يريد الفلاته أو الفلاتيين.

كما ذكر أخوه الشيخ محمد بلو الهوسا بلفظ الَحوْس فقال:

وكـانت وادي وباغـرم قبل هذا تحت سلـطانهم وكـذلك بلاد (حَوْس) بفتح الحاء وما والاها في بلاد بونس بفتح الباء وإسكان الواو ثم ضعفت شوكتهم[1].

ثم ذكر تحديد بلاد الَحوْس وأقاليمها وساكنيها فقال:

وغربـي (برنو) بلد (حَوْس) وهو سبـعة أقـاليم، لسانهم واحـد، وعلى كل إقليم أمير نظيـر للآخر، قبل هذا الجهاد وأوسطها كـاشنة، وأوسعها زكزك، وأجد بها غوبر، وأبركها كنوّ.

وهي بلاد ذات أنهار وأشجار ورمال وجبـال وأودية وغياض يعمرها السودانيـون من مماليك البربـر من أهل برنو والفلاتيـون والتوارك[2] يريد الطوارق.

(١) انفاق الميسور ص ٣٤.
(٢) انفاق الميسور ص ٤٤.

بلاد التكارنة:

وبلاد الحوس: جزء من السودان الغربي القديم الذي كان بعض أسلافنا يسمونه في العصور المتأخرة بلاد التكرور ولا يزال بعض الناس عندنا يسمون أمثال هؤلاء بالتكارنة والتكاررة الواحد منهم تكروني - بالعامية أو تكروري بلغة الكُتَّاب.

وقد أصبحت كلمة (تكروني) في بلادنا تقابل كلمة زنجي أو تكاد، لذلك صرت اكره التلفظ بها. لأنني أعلم أن علماءَنا الأوائل لا يسمون أهل هذه البلاد بالزنوج ولا يعتبرونهم زنوجًا كما أنهم لا يعتبرون كلمة تكروري بمثابة تعيير وانما هم يجعلونها للتعريف.

و(التكارنه): جمع تكروني وهو تحريف للتكاورة: جمع تكروري.

ولكن لفظ التكاررة أو التكرور لفظ غريب لأنه كما قال أحد علماء التكاررة الشيخ محمد بللو إنه اسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة ولكنه مندرس في محله حتى لا يعرفه أهل هذه البلاد أصلا وانما يتلقى من الحجاج الذين بالحجاز ومصر. وإن كان ما ذكره عن هذا الاسم لم يمنعه من استعماله وهو من أهل تلك البلاد إذ سمى كتابه الذي أوضح فيه دعوة والده الشيخ عثمان بن فودي وما صاحب ذلك من ماجريات في السودان الغربي الذي يشمل شمال نيجيريا وجنوب مالي والنيجر والسنغال وغينيا وما قرب من ذلك باسم (انفاق الميسور من تاريخ بلاد التكرور).

وقد كتب العلامة المشهور السيوطي رسالة أولها: من عبدالرحمن بن ابي بكر السيوطي إلى الملوك والسلاطين في بلاد التكرور...الخ.

وحتى في كتبنا العربية القديمة لم نجد لفظ التكرور إلا في القرون المتأخرة وظني انها لم تكن معروفة قبل القرن الثامن الهجري. والله أعلم.

إلا إذا كان المراد اسم بلدة معينة فإن ذلك كان موجوداً وذكره طائفة من مؤرخينا العرب فذكروا بلدتين إحداهما اسمها سلى والثانية اسمها تكرور وذكروا أنهما ببلاد غانه القديمة أو من ملحقاتها ولكن هذا الاسم إذا كان صحيحاً قد اندثر الآن ولم يبق له من آثر.

قال الحميرى في الروض المعطار: (تكرور): مدينة في بلاد السودان بقرب مدينة صنغانة على النيل، وهي أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز، ويخرجون منها بالتبر والخدم. إلى أن قال:

ومن مدينة سلى و(تكرور) إلى مدينة سلجماسة أربعون يوماً بسير القوافل، وأقرب البلاد إليها في بلاد لمتونة الصحراء(أزقي) وبينهما خمس وعشرون مرحلة أ.هـ. وقوله: على النيل يريد به نهر النيجر أو نهر السنغال.

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان: (تكرور) برائين مهملتين: بلاد تنسب إلى قبيل من السودان في أقصى جنوب المغرب وأهلها أشبه الناس بالزنوج.

فبلاد التكرور مشهورة في الكتب وهم لا ينكرون ذلك في بلادهم حتى إن الأمير محمد بللو بن الشيخ عثمان بن فودي سمّى كتابه الذي سبقت الإشارة إليه قريباً (انفاق الميسور في أخبار التكرور) ولم ير في ذلك غضاضة.

وإن كانوا لا يستطيعون أن يحدودها هنا بدقة إذ هي تشمل عندنا ذوى البشرة السوداء في غرب افريقية وأما عندهم فلا يعرفون هذا التحديد.

على انه لا يوجد الآن بلد أو منطقة تسمى (تكرور) في غرب افريقية كله، بل لا يوجد قوم هنا في بلاد السودان الغربي يسمون التكاررة أوالتكارنة إلا ما كان من قبيلة اسماها الفرنسيون توكولير إؤاظمتماضايئ وهي في السنغال وغينيا وربما كان الفرنسيون أخذوا ذلك من هذا الاسم الشائع لهم عند العرب وإن لم يكونوا يسمون به أنفسهم، ولا يعرفونه – فأصبح اسماً على هذه القبائل فتكون (تكروليـر) أصلها (تكروني).

وبلاد الشيخ عثمان دان فودي

هذه البلاد كانت مقراً ومنطلقاً لدعوة الشيخ المصلح عثمان دان فودي إذ كان منذ أن افتتحها استقر بها وجعل مدينة (صوكتو) مقراً لحكومته وسوف يأتي الكلام عليها عندما نزورها بإذن الله.

والشيخ عثمان بن فودي ويقولون: عثمان دان فودي ودان: معناها ابن بلغة الهوسا، ولد في عام ١١٦٦هـ، وتوفي في عام ١٢٣٣هـ.

وهو الذي أسس دولة إسلاميه عاشت مائة سنة قبل أن يصل الاستعمار الانكليزي.

ودعوة الشيخ عثمان بن فودي معاصرة لدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب وليست مقتبسة منها وقد مات ابن فودي قبل واقعة الدرعية بسنة أي في عام ١٢٣٢هـ، ولم يكن هناك في ذلك الوقت من وسائل الاتصال ما يجعله ممكناً بسهولة.

وافترض بعض العلماء أن ابن فودي حج وتأثر بدعوة الشيخ محمد ابن عبدالوهاب وأنه من الممكن انه قد لقي في مكة المكرمة أفراداً من السلفيين المتأثرين بالدعوة وهذا افتراض محض.

وإلا فإنه عند فتح الحجاز في زمن الإمام سعود بن محمد بن عبدالعزيز آل سعود في عام ١٢٢٠هـ كان ابن فودي قد قام بدعوته منذ سنين وأسس دولته في عام ١٢١٨هـ.

والذين ذكروا سيرة ابن فودي لم يذكروا أنه حج أو اعتمر في حياته كلها لا قبل قيامه بالدعوة ولا بعد ذلك.

ولم يرد ذكر للشيخ محمد بن عبدالوهاب في كتب الشيخ ابن فودي وأتباعه الذين كانوا في زمنه مع كثرة ذكر من عرفوهم واتبعوهم من العلماء في أشعارهم.

إضافة إلي شيء أساسي وهو أن دعوة ابن فودي ليست سلفية خالصة كدعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب فهو كان يجيز التوسل بالنبي والأولياء كما أنه قادري متبع للطريقة القادرية.

وقد استمرت هذه الدولة في احفاد ابن فودي وكان آخرهم السلطان الطاهر حيث قاوم الانكليز حتى هزم في عام ١٩٠٣م.

في مطار كادونا:

نزلنا في مطار كادونا في الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة والعشرين عصراً فكان وقع الهواء والشمس فيها علينا لذيذا جداً لانه جو جاف يشبه ما ألفناه في بلادنا وخاصة أن وصولنا كان من إبادن ولاجوس حيث الجو حار رطب ثقيل.

يبدو من إلقاء نظرة أولى على مطار هذه المدينة الشمالية التي هي مثل غيرها من مدن الشمال تقطنها أغلبية إسلامية، بل هي كانت بلاداً إسلامية خالصة، والذين فيها من غير المسلمين في الوقت الحاضر هم من الطارئين عليها لا من سكانها الأصليين. يبدو المطار متوسط الساحات فيه عدد من الطائرات الصغيرة وطائرات التدريب. ولكنه ليس واسعاً.

وقد فوجئت عندما أردنا الدخول إلى قاعة السفر من المطار فإذا بنا نصطدم عند بابها بجيش من المسافرين، وإذا بالجميع يختلطون لانه ليس للقاعة إلا باب واحد يدخل منه القادمون ويخرج منه المغادرون في اللحظة نفسها، وكان هذا مظهراً من مظاهر عدم النظام.

ولكنه كاد يكون مفهوما لنا عندما دخلنا القاعة فوجدناها صغيرة جداً وفيها يتم كل شيء للمسافر القادم والمغادر فكلهم ينتظرون فيها، وفيها يسلمون أمتعتهم للوزن وفيها أيضاً يتسلم القادمون أمتعتهم وحقائبهم عند وصولها.

وبقينا في هذه القاعة التي لا يكاد المرء يجد فيها موضعا لقدمه، ورحنا نبحث عن مكان تسلم الحقائب فإذا به يحيي في أذهاننا ذكريات كانت قد غابت عنها منذ سنين وذلك عند بدء حركة السفر بالطيران في بلادنا، حين كانت الحقائب والأمتعة تأتي مع موظف يتزاحم الركاب ويتسارعون على الوصول إليه وهم يرفعون أصواتهم كل منهم يريد ان يأخذ حقيبته أو متاعه قبل غيره.

وقد يقابل صياحهم بصياح مثله ينتهر بذلك متسرعاً أو يلقي بأوامره إلى من يراهم يخالفون ما يريده منهم.

وقد حضرت الدفعة الأولى من الحقائب على عربة يدفعها رجلان ويجرها من أمامها ثالث. وذلك بعد مضي فترة طويلة من الوقت.

وتزاحم الركاب رجالاً ونساء كل يريد أن يسرع إلى أخذ حقيبته وينصرف فكان هناك صياح وتزاحم حتى النساء اشتركن في ذلك.

ونفدت محتويات العربة الكبيرة فانتظرنا فترة حتى حضرت مرة ثانية. وكان الموظف المسئول عن الحقائب لا يسلم أحداً حقيبته بيده الا بعد أن يأخذ منه ايصال الحقيبة الذي يحمله ويطبق رقمه على الموجود على الحقيبة.

ولاحظت أنهم محافظة منهم على أمتعة الركاب قد جعلوا ضابطاً بلباسه العسكري واقفًا يراقب ما يتم في الأمر حتى لا يتلاعب الموظف أو بعض الناس بحقائب الركاب.

وأردنا أن نجد سيارة أجرة عند باب المطار فلم نجدها وانما أخبرونا أنه يمكن احضارها من موقف قريب.

فندق حمدالله:

كانت الأجرة إلى (فندق حمدالله) ثمان نيرات.

وكنا قد حصلنا على اسمه من قبل وهو على اسم الحمد والشكر لله تعالى (حمدالله).

غير أنه تبين لنا بعد ذلك ان القائمين عليه لم يؤدوا شكر النعمة فسمحوا بوجود الموبقات فيه – فالخمر وما تفرع عنها من البيرة والنبيذ تشرب فيه بصورة لا أذكر أنني شاهدت مثيلا لها فيما رأيته من الفنادق

في انحاء العالم. والحانات وأماكن اللهو فيه متعددة، وكان أصعب شئ علينا هو الحصول على مكان يقدم فيه الشاي والقهوة لأن معظم الأماكن فيه لا تكاد تجد من المشروبات فيه إلا ما هو حرام.

وقد أخبرني أحد زميليّ بعد ذلك أنه سمع صراخاً وأصواتاً مزعجة في الثانية عشرة ليلاً منبعثة من ملهى في الطابق الأول فمنعه ذلك من النوم ونزل يستطلع الأمر من باب الفضول فعرف أن الصراخ كان من بعض الفتيات اللاتي فيه وكان بعض الحاضرين من السكارى واشباههم يحاولون أن يجبروهن على الذهاب معهم إلى بيوتهم أو محلات يريدونها فكن يصرخن ويدافعن عن أنفسهن بما تصل أيديهن إليه. والفندق لا يبالي بذلك.

ومن المفهوم أنهن هن الملومات لأنهن دخلن بأنفسهن مثل هذا المكان المشبوه.

عندما دخلنا الفندق أعجبنا منظر مدخله لكن الذي لم يعجبنا فيه هو معاملة الموجودين في الإدارة أو على الأدق الموجودات في الادارة وهن ثلاث نساء شابات هيئتهن ومنظر أشكالهن مختلف عن منظر مثيلاتهن في لاجوس وإبادن فالناس هنا من قبيلة الهوسا أو الحوس كما كان بعض المؤرخين يسميها وهم أقرب إلى العرب وأبعد عن الخصائص الجسدية الزنجية من أهل الجنوب إلا أن الطرفين يشتركان في السواد.

أسرعت وحدي إلى هؤلاء الموظفات وأنا أكاد أتأكد أنهن سيكن أحسن معاملة للعرب من مثيلاتهن في الجنوب ولكنني فوجئت بالعكس

فقد كانت الواحدة منهن لا تكاد تكلمني ورأيتها أحيانا تتحدث مع احد الرجال من بني قومها غير مبالية بهؤلاء الذين يعتبرونهم من البيض واعتقد أنهن لم يعرفن أنني عربي مسلم.

سألتهن عن الغرف فأجبن إنها موجودات والأجرة (٣٤) نيرة للغرفة الواحدة المزدوجة لأنه لا يوجد في الفندق غرفة منفردة.

وأسرعت أخبر أخويَّ بذلك بعد أن أخبرتهن أننا نوافق على ذلك غير أنهن قلن إنه لابد من دفع الأجرة مقدمًا ولابد مع ذلك من دفع مبلغ من المال بمثابة تأمين.

ولم أفهم معنى التأمين هنا لأن إخواني في السفارة السعودية كانوا قد دفعوا مثل هذا المبلغ دون أن يخبرونا واستعدنا بالفعل بعضه عند السفر.

وكنت مستكثرًا على فندق يعتبر من فنادق الدرجة الأولى أن يطلب من نزلاء يعتبرون أنفسهم من الناس الموثوق بهم بسبب جوازاتهم وسمعة بلادهم التي تدل على الغنى فيطلب منهم أن يدفعوا الأجرة مقدمًا، وهو أمر لا يكاد يوجد له نظير في أكثر بلدان العالم فكيف بأن يطلبوا معه مبلغًا من المال بمثابة تأمين.

ولماذا يساء الظن بالنزيل؟ وهل يخشى أن يقوم بتكسير أثاث الفندق أو احداث تلف فيه؟.

وقد يقال: إن ذلك لكي يحسم منه ما قد يتناوله في مطعم الفندق أو مقهاته من طعام وشراب فيكون الجواب أنهم في هذه الحالة وأمثالها يمكنهم أن يعملوا ما يعمل غيرهم وهو حجز النزيل الذي لم يدفع والاستعانة بالشرطة.

ولم يكن يهمني هذا الأمر على غرابته ولم يسؤني إلا بالقدر الذي أحسست فيه أن الموظفين هنا وأكثرهم من المسلمين كما قدمت يعاملون الناس كما يعامل غيرهم في لاجوس بسوء الظن، وعدم الثقة فيهم.

ولكن الذي ساءني كثيراً سوء المعاملة وعدم المجاملة حتى إنه كان عليّ أن أملأ بطاقات ثلاثًا لي ولزميليّ لأنهما لا يستطيعان كتابة الانكليزية وهو أمر ليس مريحاً للمسافر كما هو مجرب. إلا أنني عند ماانتهيت من ذلك أحضرت إحداهن سجل الفندق وقالت: انقل كل ما كتبته في هذه البطاقات إلى السجل.

فقلت لها إنا مسافرون بحاجة للراحة ويمكنك مساعدتنا أنت أو إحدى زميلتيك بنقل ذلك إلى السجل لأنني لا أرى عملاً كثيراً يمنعكن من ذلك. فأبت ذلك وقالت بجفاء: عليك أن تملأه أنت.

ولم تكتف بذلك بل طلبت صورة اضافية من البطاقات وهي التي يملأها نزيل الفندق في العادة على اختلاف بين البلدان في هذا الأمر فمثلاً في باريس لا أذكر أنهم يطلبون مني غير كلمة واحدة تتضمن بيان اسمي العائلي ولا شيء غير ذلك. وأما هنا وفي بعض البلدان المتخلفة إدارياً فإنهم يسألونك عن الجهة التي قدمت منها والتي ستذهب إليها مثلا إلى أسئلة أخرى كثيرة.

وعند الانتهاء من البطاقات في جو كريه على النفس وفي محل استقبال يتطلع فيه النزيل إلى بسمة أو مجاملة تعود عليها في بعض البلدان جاء دفع التأمين ضعف أجرة الغرفة لابد من أن تحضر من خازن الفندق المسمى عند أكثر العرب بأمين الصندوق ايصالا يفيد بأنك ادخلت ذلك المبلغ خزانة الفندق.

واستغرق ذلك بعض الوقت لأن الخازن كان مشغولاً بغيرنا.

وعندما دخلنا غرفنا في الفندق وجدناها مكيفة مريحة فيها جميع ما يكون في فنادق الدرجة الأولى والفندق نفسه بابهائه ومصعده ودرجاته يبعث على السرور من العناية الظاهرة والصيانة المستمرة فيه.

ولم يكن الوقت المتبقي من هذا اليوم يسمح ببرنامج عمل مثمر فأخلدنا إلى الراحة والهدوء في فندق لم يعرف الهدوء إلى ما بعد منتصف الليل لأن مساء السبت عندهم هو الذي يطلع عليه يوم الأحد الذي هو يوم عطلة فكان الشاربون يشربون شرب الهيم وكان الآكلون يترددون على مكان الأكل وكان عدد المتسكعات والمتبرجات والمتعرضات بل المتحرشات بالنزلاء كثيراً في وضع يكاد يكون خادشاً لحياء النزيل نفسه إذا كان في وجهه شيئ من الحياء إذ كان العرض كما يقول بعض الاقتصاديين أكثر من الطلب والأجانب الذين قد يطلبون قليل.

يوم الأحد: ٢٣/٥/١٤٠١هـ ٢٩/٣/١٩٨١م.

نزلنا إلى مطعم الفندق الفخم في الطابق الأرضي من الفندق فإذا به واسع جيد الفراش والرياش واذا بالخدم يسرعون يسألون فأخبرناهم بما كنا نطلبه فقالوا كل شيئ موجود ما عدا الخبز فقلنا: اذا فقد الخبر من طعام الإفطار ماذا يبقى؟

فقالوا: ما طلبتم وشربنا شايًا فقط وقد رأيت بعض النزلاء من المواطنين الافريقيين يأكلون بالملعقة شيئًا أبيض كأنه المهلبية الرقيقة عوضًا عن الخبز ولكننا لم نعرفه. وفي هذا الصباح أخذت أنا وأحد زميليّ نتمشى في فناء مكشوف واسع جدًا في اقصاه بركة للسباحة يغلق الباب المؤدي إليها عند الغروب وتتناثر في ا لفناء الخارجي الموائد والمقاعد فيأتي إليها الناس في المساء والليل ليقضوا وقتا في الهواء الطلق ويظلون يتحدثون غير أنهم كانوا يشربون من زجاجات البيرة وأصناف الخمر المخففة ما يذهل العقول، وقد رأينا الزجاجات الفارغة أكوامًا مكومة وأخرى مبعثرة مما اقنعنا بأن الشخص الواحد يستهلك في المجلس الواحد عدة زجاجات كبيرة.

ولقد رأيت طائفة من عمال الفندق في هذا الصباح بجمعون من الفناء الزجاجات الفارغة في ركن قريب من باب يفتح إلى الخارج وقد جمعوا أحمالاً ومع ذلك لم يظهر على الفناء أو (الحوش) أنه نقص من تلك الزجاجات التي فيه شيئ.

وما رأيت في حياتي مثيلاً لهذا إلا إذا كان الأجانب في الفنادق والباحات والمتنزهات يجمعون الفارغ من الزجاجات أولاً بأول ولا يدعون منه شيئا فلا يظهر مدى كثرة الزجاجات.

هذا وقد أجريت اتصالاً هاتفيًا مع الأستاذ عبدالعزيز الملحم الملحق الديني في السفارة السعودية في لاجوس وعندما فرغت من ذلك طلب العامل مني طلبا أخذ يكرره ومعناه حسبما فهمته أنني مستعد ألآ أسجل المكالمة عليك اذا اعطيتني شيئًا ولم أفعل بطبيعة الحال لأنني أعتقد أن ذلك حرام.

هذا وقد ذهب زميلنا الشيخ إسماعيل بن عتيق إلى بعض الشخصيات الإسلامية في كادونا لإجراء اتصال معها قبل أن يتجول الوفد مجتمعًا على الهيئات والشخصيات الإسلامية وذلك لأنه كانت قد بلغتنا ونحن في (لاجوس) إشاعات بأن هناك اختلافًا بين المسلمين، بل إن هناك اشتباكات بين جماعة من المسلمين حدثت في احد مساجد كادونا وأن صديقنا الشيخ (ابو بكر جومي) كما تقول الإشاعة ليس بعيدًا عن تلك الإشاعات.

وقد حزنا لذلك غير أنه تبين لنا فيما بعد أنها إشاعات لا أساس لها وأن الخلاف الموجود هو خلاف شبه إداري بين بعض المسئولين في جمعية نصر الإسلام وبين نائب الرئيس/ الشيخ محمد الرابع وأن الشيخ (أبوبكر الجومي) موجود في المملكة في الوقت الحاضر.

الشيخ أبو بكر محمود جومي

هل نحن في الخرطوم؟

ذهبنا في جولة في الشارع الرئيسي الهام في مدينة كادونا (شارع أحمد وبيللو) وهو شارع جيد ذو اتجاهين بينهما رصيف محكم الرصف وعلى جانبيه بنايات لا تشعرك بأنك في افريقية بل يخيل إليك أنك في بعض البلدان العربية أو الهند إلا أن العناية بالشارع أحسن من العناية التي تكون بأمثاله عادة في الهند.

وإذا تنسمت هواء المدينة أينما سرت خارج الفندق فإنك تشعر أنك في جواء البلاد العربية الجافة فالهواء ليس فيه رطوبة والحشائش التي قد تبدو في المتسعات أو في الحدائق التي تمر بها كلها جافة يتطاير بعض أجزائها مع الريح، والأماكن خارج الشوارع المعتنى بها ترابية إذا سارت عليها السيارة أثارت غباراً.

والسيارات هنا كثيرة بالنسبة إلى عاصمة إقليمية، ولكنها ليست في كثافة السيارات في لاجوس أو إبادن، بل أنه يصح القول بأنها معتدلة ولا يصح أن تقول إنها غير كثيرة إذ يصعب عليك ان تقطع الشارع العام إلا بعد هنيهة من الانتظار.

وسيارات الأجرة موجودة والأجرة المحددة لنقل الراكب إذا ركب مع غيره هي ثلاثون (كوبا) والكوبو – كما تقدم – هو جزء من مائة جزء من النيرة.

والأكواخ الافريقية ليست موجودة في داخل المدينة بل إن الموجود من البيوت خارج وسط المدينة هو ما يشعرك بأنك قد خرجت من افريقية وأنك في إحدى قرى البلاد العربية البعيدة عن المدن أو في إحدى القرى الافغانية لأنها مبنية من الطين الأحمر.

ودخلنا مطعماً في هذا الشارع (شارع أحمد وبيللو) فكانت هناك أغان وطنية من الإذاعة أو من مسجل وهي أغان تشبه الأغاني السودانية أو تقرب من أن تكون كذلك. فطلبنا طعاماً من اللحم والمرق ومعهما الأرز فجاؤا به كثيراً وفيراً لحماً مطبوخاً بالمرق كما يصنع في السودان وفي البلاد العربية وليس كما يصنع في الفنادق التي يسمونها فنادق الدرجة الأولى حيث يأتون باللحم إفرنجياً خالصاً ليس فيه مما اعتدنا عليه من اللحم المسلوق شيء.

أما الخادمة التي قدمت الطعام. وعلى فمها شئ من الابتسام لولا شيئ من الاحتشام فإنها تشبه بعض السودانيات.

ولذلك سألت نفسي وأنا في هذا المطعم (مطعم نانت) أأنا في السودان؟

شعب الهوسا:

الناس في هذه المدينة معظمهم من الهوسا أو (الحوس) كما يقول بعض المتقدمين وهم أناس كثيرو العدد ومنتشرون في المنطقة الافريقية هذه فأغلبهم في شما ل نيجيريا، ومنهم في غانا وسيراليون ومالي وتشاد والكاميرون.

وهم في نيجيريا يمثلون أكبر مجموعة عنصرية. وهم سود الألوان مثل غيرهم من الافريقيين إلا أنهم ليسوا كلهم شديدي السواد وتقاسيم وجوههم أبعد عن التقاسيم الإفريقية تحت خط الاستواء وأجسامهم قوية وقاماتهم مديدة بالنسبة إلى أهالي جنوب نيجيريا.

وهم مسلمون بأغلبيتهم بل لا يتبادر إلى ذهنك اذا سمعت بهم إلا الإسلام لأن الأمر كذلك.

وهم متمسكون في الأصل بدينهم الإسلامي الحنيف أكثر من بقية الأجناس العنصرية في نيجيريا باستثناء بعض الفلاتيين، إلا أن بعضهم يخلط إسلامه بأشياء أخرى غير إسلامية مثل عادات بعض الطرق الصوفية أو بعض البقايا من العادات القديمة إلا أنهم حتى في هذه الناحية هم أنقى إسلاماً من غيرهم من أهل الجنوب أو الغرب في نيجيريا.

ويلاحظ الغريب الذي يقدم من لاجوس إلى هذه المدينة أنهم أكثر

هدوًا ورزانة وأفضل أخلاقاً ولباقة من أهل لاجوس.

بل هم ربما صح القول بأنه لا وجه للمقارنة بين أهل المدينتين بصفة عامة. ويمكن بشئ من التجوز أن يضموا إلى مجموعة الأجناس الافريقية من غير (البانتو) أو الزنوج مثل ا لسودانيين والاحباش والصوماليين.

بل أن بعض المؤرخين من العرب القدماء كانوا يسمون بلاد مالي وما قرب من بلاد هؤلاء الهوسا (بلاد السودان) وكانوا يسمون نهر النيجر (نهر النيل) أو نيل السودان كما ذكرت.

يوم الاثنين: ٢٤/٥/١٤٠١هـ ٣٠/٣/١٩٨١م.

إلى نصر الإسلام:

ومن منا لاينبغي له أن يسارع إلى (نصر الإسلام)؟

ولذلك سارعنا في صباح مبكر إلى ركوب سيارة أجرة قاصدين (نصر الإسلام) والمراد به جماعة نصر الإسلام وهي جمعية قديمة التأسيس واسعة الفروع كانت من أقوى الجمعيات الإسلامية بعد الاستقلال، وكانت تحظى بتأييد الزعيم الإسلامي الكبير الشهيد ان شاء الله (أحمد وبيللو) رحمه الله.

ومرشدها وقائدها الديني في الوقت الحاضر هو صديقنا القديم الشيخ (ابوبكر جومي) رئيس قضاة شمال نيجيريا في السابق.

مررنا في الطريق إليها بشوارع مشجرة بأشجار بعضها نافع كالعمبة (المانقو) وبعضها للظل فقط مثل (الجزورينا) أو الأثل الامريكي وهو هنا يكبر ويجود وليس كما عليه حاله في البلاد الاستوائية الرطبة.

وقد أشعرنا الجو اللطيف ذو النسمات الباردة هذا الصباح بأننا بالفعل قد خرجنا من جو الدائرة الإستوائية الثقيل بالنسبة إلينا نحن الذين اعتدنا على العيش في الأجواء الجافة.

والبيوت التي مررنا بها ليست مرصوصة رصاً على الشوارع

والأزقة، بل هي ممتدة تترك مساحات جيدة من الفراغ قد ملئت بالحشائش الجافة أوعلى الأرض ببقايا ا لحشائش الجافة.

ولاغرو في ذلك لأننا الآن في فصل الجفاف، وفي أواخر فصل الجفاف الطويل في هذه المنطقة ويقولون: أن فصل الامطار يحين في أواخر شهر يونيو فهو هنا قريب أيضًا من السودان والصومال وليس مثل جنوب نيجيريا وغربها الذي يحين موسم الأمطار فيه في أوائل شهر إبريل .

والأمر في مشابهة الجو في هذه المنطقة لجو الخرطوم وما قرب منها في السودان سهل ذلك بأن مدينة الخرطوم تقع على خط العرض العاشر شمال خط الاستواء ومدينة (كادونا) هذه تقع على العرض نفسه (العاشر شمال خط الاستواء).

سألت سائق سيارة الاجرة عن اسمه؟ فأجاب: جمعه ولما كان مظهره يختلف قليلاً عن مظهر الهوسا سألته عن قبيلته؟ فقال: من اليوربا، وسر عندما عرف أننا نحن الأجانب عن هذه البلاد من المسلمين.

وقد أوقفنا عند مدخل مقر جماعة (نصر الإسلام) فرأينا لافتتين كبيرتين مكتوبًا في أعلا كل واحدة منهما باللغة العربية اسم الجمعية إحداهما بخط محلي متفرع من الخط الكوفي القديم ويشبه الخط المغربي في الوقت الحاضر. واللافتة الثانية بخط نسخي مشرقي جميل.

ويقع مقر الجماعة في شارع علي اكيلو.

ولما دخلنا إلى الفناء الخارجي للمقر الواسع رأينا عدة سيارات واقفة تحت ظلال أشجار كبيرة وعلى إحداها كتبوا بالعربية (منظمة الإغاثة النيجيرية لجماعة نصر الإسلام - كدونا) إلى جانب عدة سيارات صغيرة بعضها قد علاها غبار أحمر ذكرني ببعض البلاد الأفريقية البعيدة عن خط الاستواء مثل (بتسوانا) فقد رأيت السيارات الواقفة فيها يعلوها في العادة غبار أحمر لأنني كنت قد زرتها في فصل الجفاف وإن كان الوقت مخالفًا إذّ كان ذلك في شهر أغسطس وهي تقع على خط معاكس على حوالي ٢٠ درجة جنوب خط الاستواء وليس شماله. وقد قصصت قصة الرحلة إليها في كتاب: (صلة الحديث عن إفريقية).

دخلنا إلى بناء جيد من الاسمنت المسلح ذى طبقات فوجدنا بعض الموظفين الصغار ولكننا لم نجد أحدًا من المسئولين فخرجنا إلى الشارع نتمشى مع أحد الإخوان الذين صادفناهم هناك واسمه (عثمان أبو بكر السلفي) وهو رجل سمي نفسه السلفي حبًا في الانتساب إلى السلف الصالح ومحاربة البدعة في هذه البلاد التي يوجد فيها للطرق الصوفية سلطان على بعض المسلمين المقلدين.

كان الأخ عثمان السلفي يلبس قميصًا طويلاً يشبه القمصان السودانية إلا أنه أضيق منها قليلاً فهو في هذا الأمر يشبه القمصان العربية وفوق رأسه عمامة سودانية تمامًا ويتكلم العربية بلهجة سودانية ومرجع ذلك كله إلى كونة عاش في السودان فترة، وهو شاب يظهر عليه الصلاح والفلاح ورأينا معه في سيارته نسخة من كتاب

(جواهر البخاري) وهو أحاديث مختارة من صحيح البخاري - ويظهر عليه في الوقت نفسه الغنى إذ رأينا معه سيارة سويدية من طراز (فولفو) الغالي الثمن.

خرجنا من باب الجمعية فصادفنا رجلاً في الشارع يسوق خرافاً غير سمينة فسألناه عن ثمن الواحد منها؟ فأجاب: أنه ثمانون نيرة.

الملثمون:

رأينا عند باب جماعة نصر الإسلام كما رأينا بعد ذلك في هذه المدينة وغيرها جماعة من الطوارق أو التوارك كما يسميهم بعض الناس وهم من أهل جمهورية النيجر وهم يتميزون عن غيرهم بأمور أهمها وأكثرها ظهوراً اللثام العجيب الذي يغطي ما بين الأنف والفم وما تحت ذلك من الوجه إلى جانب الملابس الفضفاضة التي يلبسها أهل الصحاري في العادة إلا أنها على هؤلاء الملثمين أكبر حجماً وأكثر تكويماً وتكون العمامة كبيرة مكورة على الرأس وذات حنك أي جزء نازل منها يلفه لابسها على حنكه الأسفل وأهم ما عندهم فيها هو غطاء الفم فإذا أراد الشخص منهم أن يكلمك فإنه يرفع يده إلى فمه ليتأكد من كون اللثام لا يزال يغطي فمه كله.

والذين رأيناهم منهم هو سود الألوان ولكنه سواد غير حالك. ويمكن وصفهم بأنهم الشناقطة إلا أن ألوانهم سود.

والناس هنا لا يسمونهم الملثمين وإنما يسمونهم (التوارك). وليسوا من أهل نيجيريا، وإنما هم طارئون عليها مع أنني رأيت بعضهم

يبيعون أشياء خفيفة والغالب عليها الأسلحة التي تستعمل لتزيين البيوت بمثابة التحف كالسيوف والخناجر إلا أن أسعارهم غالية جداً.

ولا يكادون يفهمون شيئاً من الانكليزية حتى الكلمات الشائعة وعندما عجزنا عن التفاهم مع أحدهم سألنا عما أذا كنا نعرف الفرنسية؟

ووجدت أحدهم يعرف شيئاً من العربية قال انه تعلمه في المدرسة وإلاّ فان لهم لغة خاصة بهم وليسوا كالشناقطة أو الموريتانيين الذين ليست لهم لغة غير الحسانية التي هي عربية عامية، وهذا مع فارق اللون من الفروق الرئيسية ما بينهم وبين الشناقطة، وإن كان بعض الناس في بلادنا يخلطون بينهم ولا يميزون أحد الجنسين من الآخر.

وعدنا إلى المكتب بعد قليل مع أن الهواء في الشارع كان صباحياً عليلاً ليس فيه للرطوبة من أثر فوجدنا في مدخله رجلاً يرتدي الملابس العسكرية وقدمه لنا أحد الإخوان العاملين في جماعة نصر الإسلام فقال إنه الضابط (صالح كوباو) وإنه مدير المرور في هذه المنطقة الشمالية، وتكلم الضابط ببعض الكلمات العربية مجاملة لنا فسألناه عما إذا كان يعرف العربية؟

فأجاب: إنه لا يعرف منها إلا قليلاً، وقالوا إنه تلميذ للمشايخ يدرس الدين واللغة العربية في الليل، وأنه عضو في (جماعة نصر الإسلام).

وهو مديد القامة رشيق الجسم كأنه من الصوماليين.

في مقر نصر الإسلام:

أبديت لهم إعجابي بهذا المكان من البناء والساحات الخارجية فأخبروني بأنه كان للحاج أبو بكر تفاوا بليوى أول رئيس وزراء في تاريخ نيجيريا المستقلة وأنه كان قد عقدت فيه اجتماعات لحزبه في أول الأمر ثم أهداه لجماعة نصر الإسلام رحمه الله.

واجتمعنا في المقر بالشيخ محمد الرابع نائب الشيخ (أبو بكر جومي) فتحدثنا معه بعض الوقت وأمر لنا بسيارة تنقلنا في تجوالنا على المدارس والمعاهد الإسلامية.

جولة في كادونا:

واسمها معناه التماسيح لأن (كدا) تعني تمساحًا باللغة الهوساوية (كادونا) تعني تماسيح. والسبب في ذلك أنه كانت التماسيح توجد في نهر كادونا. بدأنا الجولة بالوقوف في صف من السيارات غير طويل أمام محطة للوقود مجاورة لمقر جماعة نصر الإسلام. وكان صبي يكنس الأرض بقش طويل معه فكان يثير عاصفة من الغبار في الأرض وهو يفعل ذلك بسبب الجفاف الذي يسود البلاد في هذا الفصل. وقد ذكرني ذلك بما كنا نفعله في بلادنا في الزمن القديم.

وقد لاحظت أن أكثر السيارات هنا وبخاصة السيارات الخاصة أي غير سيارات الأجرة هي جديدة وكان أول وقوف لنا على معهد كتبت عليه اللافتة باللغة العربية (جماعة نصر الإسلام – المعهد الإسلامي الثانوي).

استقبلنا في هذا المعهد مدرس اسمه محمد أول متخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة وقال أنه عمل عند حكومة هذه البلاد لمدة سنة واحدة لأن هذا شرط للسماح له بالسفر للدراسة في الخارج وهي قاعدة عامة لمن ينهون دراساتهم العليا في الخارج ، ودخلنا في السنة الثانية التمهيدية كما يسمونها وهي قبل القسم الثانوي فوجدناهم في درس في الحديث الشريف وكان الدرس مستمراً باللغة العربية وهي وحدها لغة التدريس في هذا المعهد ووقف الطلاب يحيون ضيوفهم، وهم في صحة جيدة ونظافة جيدة ولباسهم القميص ا لطويل وفوق الرأس طاقية.

وقال الأخ محمد أول إن عدد الطلاب ٣٥٠ والمدرسين ٧ تنفق جماعة نصر الإسلام على المعهد كل ما يحتاجه وأن البناء ملك للجماعة.

وقال أحد المدرسين: اننا لا نأخذ رسوماً على الطلبة وإنما الدراسة في المعهد بالمجان.

في حي شعبي:

تركنا هذا المعهد سالكين طريقًا في حي شعبي لاحظنا فيه وجود ماعز أحمر مع ميل إلى الصفرة كبير الحجم وأهم ما يلاحظه المرء في هذه المعزى هو ضخامة اثدائها وهو يدل على كثرة اللبن في العادة.

ولاحظنا مجاري لمياه المطر قد ركدت وهم يلقون فيها بالأقذار أو أن الريح تحمل إليها ذلك ومنظرها قبيح ولا شك أنها مضرة بالصحة أيضا.

مع اننا لم نلاحظ في الأحياء الراقية في هذه المدينة أثرًا لمجاري المياه القذرة كالموجود في مدينتي لاجوس وإبادن وغيرهما من المدن الافريقية الاستوائية خارج نيجيريا.

ولاحظنا أن تنظيم مرور السيارات في مفارق الطريق يكون باشارات من شرطة المرور.

والشرطة عندهم ذوو قامات ممشوقة وصحة جيدة فهم يبدون في الغالب كأنهم الصوماليون لولا أنهم أكثر سوادًا واللون المميز لملابسهم هو قميص برتقالي بكمين طويلين وسروال (بنطلون) أسود طويل أيضا وقبعة ذات لونين أسود وبرتقالي.

ولاحظت أن أهل السيارات يحترمون أوامر شرطي المرور ويطيعون اشاراته وهو يحترمهم كذلك فلم أجد بين الفريقين معاكسة أو معاندة كما قد يكون في بعض البلدان الأخري ثم مررنا على شارع يسمى (شارع الاستقلال) مسفلت سفلتة جيدة إلأ أن جانبيه تراب لا رصيف فيه.

وقد غرسوا جانبيه بأشجار المانقو فأصبحت ضخمة تكاد تتصل فروعها وأصبح جانباه منها ظلليين ولم أر عليه أشجارًا أخرى.

ورأيت هذه الأشجار من المانقو قد بدأت في الإثمار ولم تنضج ثمارها بعد بل هي لا تزال صغيرة ولو جمع ما في أشجار هذا الشارع وحده من ثمار المانقو لكان ذلك شيئًا كثيرًا. ولو أنهم غرسوا الشوارع الأخرى أو بعضها بأشجار مثل هذه لكان لها من الثمار ما يرخص الثمار في

موسمه أولاستطاعوا عصره وخزنه لاستهلاكه طوال العام عندما ينتهي موسمه وبخاصة أن هذه المنطقة تفتقر إلى غذاء ذي سكريات مركزة كالتمر عندنا مثلاً أوكالموز عند سكان خط الاستواء وما قرب منه.

ولاحظنا أن مرور السيارات في هذا الشارع وغيره كثيف وأن عدد السيارات في هذه المدينة أكثر مما كنت أظنه.

فكان بعضهم اذا تضايق من الازدحام على السير في الاسفلت في هذا الشارع خرج إلى الجانب الترابي فأثار غباراً يعفر به ركاب السيارات التي يمربها وقد آذاني ذلك لأن الغبار كله بصفه عامة مما يؤذيني.

ومن مظاهر الجفاف أننا مررنا بمستديرة أو دوار كما يسمى عندنا وهو الموضع المستدير بين الشوارع المتقاطعة يوضع لئلا تتضارب السيارات في المنطقة عند التقاطع ويغرس عادة بالحشائش والزهورأو يوضع فيه تمثال أو نحوه مما لا يمنع رؤية السيارات التي تلف حوله فكانت تلك المستديرة جميع الحشائش التي كانت قد زرعت فيها قد جفت وأصبحت هشيماً تذروه الرياح.

مدرسة نور الإسلام:

يحرص إخواننا المسلمون من غير العرب على اختيار الأسماء الإسلامية لناسهم ومؤسساتهم حبًا في الإسلام وتفاؤلاً بالنصر له ولو كان في ذلك بعض المبالغة أو الغرابة أو كان الاسم أكبر من المسمى

كثيراً في الحقيقة ومن ذلك اسم هذه المدرسة التي نزورها (مدرسة نور الإسلام) وهي تابعة لجماعة سلفية اسمها (جماعة إزالة البدعة وإقامة السنة) مهمتها مكافحة البدع والخرافات بل وأنواع الشرك الموجود في عقائد بعض الناس وبخاصة غلاة المتصوفين وأرباب الطرق. ولها علاقة بجماعة نصر الإسلام، بل تكاد تكون متفرعة عنها.

وهذه المدرسة حديثة البناء جميلة المنظر إلا انه ليس فيها دراسة في مثل هذا الوقت من النهار لأن الدراسة فيها مسائية وقد زارها زميلنا الشيخ إسماعيل بن عتيق في المساء فرأى فيها من العجب العجيب من كثرة الناس الذين جاؤا إليها بسياراتهم وبعضهم من كبار الموظفين وفيهم من كبار التجار وكلهم جاؤا وواظبوا على الدراسة من أجل تعلم اللغة العربية والعقيدة الإسلامية الصحيحة وقال إنها لا تدرس اللغة الإنكليزية.

وسرنا مع وسط المدينة الشعبية أي مع الأحياء غير الفاخرة بيوتها من الطين المطلى بالجص وأسفلها يكون للمتأنقين ذا طلاء أزرق فهى بهذا تشبه بعض بيوت المدن والقرى في بلادنا في العهد السالف الذي سبق العصر الحاضر عصر البيوت الاسمنتية المسلحة والتجميل بالحجارة المنقوشة.

والحقيقة أن البلد القديم من كادونا كان كله مبنيًا بالطين ولا يزال اكثره كذلك إلا ما كان على شوارع عامة.

وأما السقوف فإن أكثرها في الوقت الحاضر من الزنك الذي كثيراً ما يصدأ من الرطوبة والمطر فيصبح ذا منظر سيء.

وقد رأيت في بعض هذه الأحياء الشعبية قنوات المجاري القذرة في الشارع مكشوفة وهي على هيئة جداول صغيرة في الجانبين أو في أحدهما.

والشوارع الرئيسية مسفلتة ولكن جوانبها ترابية بمعنى أنها ليست مرصوفة وإنما هي ذات تراب أحمر كثيراً ما يكون فيه بعض القش والنفايات.

وكنا قد أخذنا شخصاً من أهل البلدة ليدلنا على بعض معالمها ولكن تبين أنه لا يعرف من العربية ما يكفي ولا يعرف من الانكليزية شيئًا، فقصدنا أحد الإخوان العارفين، بما نريده فطرق الرفقاء بابه ويقع في حي شعبي على شارع رئيسي رأيت شخصاً في هذا الشارع يشرب شيئًا غليظًا وهو بين الناس فسألت عنه فأخبروني أنه (دويفة) رقيقة وخرج الأخ الكريم (حسين إسحاق) من أهل كادونا من بيته فصحبنا وكان نعم الصاحب فهو يعرف الانكليزية جيداً، ويعرف شيئًا من العربية لا يكفي للتفاهم مع العرب، وفي هذا الشارع الذي اسمه (إبراهيم تايوورود) أي: شارع إبراهيم تايوو وهو كما قلت في منطقة شعبية كان لباس النساء اللاتي رأيناهن في تلك المنطقة مزركشًا جميلاً ساتراً للبدن.

وخرجنا منه إلى جهة قريبة مع أزقة بيوتها شبه متراصة مبنية من الطين والجص، وبينها عدد قليل من البيوت الاسمنتية وكلها من طابق واحد.

مدرسة إحياء السنة:

فوصلنا إلى مدرسة تسمى (مدرسة إحياء السنة) كان الفصل الأول الذي دخلناه من فصولها كل من فيه من الإناث وأغلبهن من الصغيرات وكان الدرس في الفقه والمدرس يشرح باب الحيض واسم المعلم أبو بكر صالح أحمد. وهو يشرح الدرس باللغة العربية مما يدل على أنهن يفهمن العربية.

وبعد درس الحيض هذا دخلنا فصولاً كانت تدرس التفسير واللغة وفي أحدها كان الطلاب من الجنسين وقد جعلوا البنات خلف الذكور.

وهنا في قسم آخر من المدرسة منفصل عن الذي زرناه في أول الأمر بينهما شارع عام فيه مجمع للمياه المستعملة. عميق المجرى ماؤه جار وهو مكشوف للنظر إلا أن الذي تمر عليه السيارات أو لناس معترضاً في الشارع قد سقفوه.

دخلنا في القسم الآخر وهو حديث البناء جميل السقوف مزدحم بالطلاب أول ما دخلنا الفصل وسلمنا عليهم نهضوا كلهم وقالوا بصوت واحد (وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته أهلاً وسهلاً ومرحبًا بك ياسيدي) وذلك بعربية فصيحة.

وقد كانت جميع الكتابات التي على سبورات المدرسة باللغة العربية وكذلك كان جميع المدرسين يتكلمون معنا بالعربية.

وواصلنا السير في هذه الأقسام الشعبية من مدينة (كادونا) وقد مررنا بعدة أكوام من القمامة عليها شياه – جمع شاة – تأكل من أوراقها وما قد يوجد فيها مما يصلح لأكلها .

وأما الشوارع نفسها فإنها واسعة جدًا، ذات جوانب ترابية عريضة يخيل إليك أنك وأنت واقف فيها في إحدى القرى في البرية.

وأما بيوتها فإنها كما هي العادة هنا ذات طابق واحد لا تخلو من الماشية وقد رأينا عدة شياه بيضا وضأنهم كبير الحجم، وكذلك المعزى.

ووصلنا إلى مدرسة أخرى اسمها (إحياء الدين الإسلامي) تابعة لجمعية ازالة البدعة، وإقامة السنة وتقع في حي يسمى (نيواكسلشن)، استقبلنا عند مدخل المدرسة نيابة عن المدير الشيخ (محمد يعقوب) لأن المدير غائب، عليه لباس يشبه لباس المغاربة المستعمل في مالي وغطاء الرأس في هذا اللباس طاقية بيضاء واقفة.

ومررنا بفصول المدرسة وطبيعي أن يكون طلابها كلهم من الهوسا كما أخبرونا لأننا في بلاد الهوسا وهم يختلفون عن الأطفال الذين هم من أهل منطقة لاجوس الاصلاء اختلافاً واضحًا في المظهر.

وقد لبسوا قمصًا موحدة الشكل والتفصيل، وعلى رؤس البنات أغطية ساترة يشبه الواحد منها (الغترة) عندنا.

وفي السنة الثالثة الابتدائية كان الدرس (تلاوة القرآن وتجويده) وأمر المدرس طالبتين أن تسمعانا تلاوة قصيرة فقرأتا معًا قراءة جيدة واسم إحداهما (بلقيس أحمد) وهذا اسم مألوف لنا أما الأخرى فاسمها (حُسينة أحمد) بضم الحاء وفتح السين وهو اسم حسين المذكر مضافة إليه تاءا المفردة المؤنثة الواحدة، ثم دخلنا فصلاً طلابه أصغر سنًا أكثرهم من البنات على رؤسهن غطاء أصفر وجميع اللافتات التي رأيناها في المدرسة هي باللغة العربية.

كيف النهار؟

عندما دخلنا إلى غرفة السنة الثانية الابتدائية وسلمنا على من فيها رد علينا الطلبة وهم مختلطون ما بين بنين وبنات بقولهم بصوت منغم موحد (السلام عليك أيها الاستاذ الكريم ورحمة الله وبركاته، كيف النهار؟).

لا شك في أن أستاذهم قد عودهم على هذه التحية عندما يأتي إليهم.

أما مناظرهم فإنهم لا يكادون يختلفون عن التكارنة الذين نعرفهم في الحجاز مما يدل على أن معظم الذين كانوا عندنا من هذه المنطقة أو ما كان قريبًا منها وليسوا من منطقة خط الاستواء وهذا ظاهر يؤيده أن أهالي خط الاستواء لم يشملهم الإسلام حتى الآن والذين اسلموا منهم بعضهم إسلامهم حديث.

وهؤلاء يمتازون بعيون واسعة ووجوه مستطيلة وسواد شديد.

وتوجد هنا الزواحف الشبيهة بالحرابى - جمع حرباءة - التي رأيناها أكثر ما رأيناها في أكرا عاصمة غانا ثم تكررت رؤيتها بشكل كثيف في نيجيريا وهي أنواع منوعة بعضها ملون بأحمر وأصفر برتقالي وبعضها أشهب مغبر اللون وهي كبيرة الحجم غير مألوفة رؤيتها في بلادنا. وتدخل في الغرف وتتسلق الحيطان. ولا أراهم يأبهون لها كما لا أرى قططًا أو كلابًا كثيرة يمكن أن تأكلها.

وفي هذه المدرسة انتقلنا لمشاهدة مدرسة إسلامية أخرى وهي كتاب أو شبيهة بالكُتّاب عندما دخلنا على طلابها وسلمنا عليهم قابلونا بالرد المعهود (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: كيف أصبحت يا أستاذ) وذلك بصوت جماعي وفي نغمة منسجمة.

وهي في بناء جيد نظيف من لبن الأسمنت وسقفه من الزنك غير الصدئي والطلاب كلهم على مقاعد.

ووجدنا مع معلم السنة الأولى واسمه (أحمد نجاري) عصا، فسألته: لماذا هذه العصا؟ فأجاب: لأضرب بها الساج والخشب لتنبيه الطلاب وليست لضرب الطلاب أنفسهم.

والأطفال في هذه الفصول وبخاصة الأولى الابتدائية مختلطون ما بين بنين وبنات وهم نظيفو الأبدان. ذوو مظاهر غذائية حسنة على أجسامهم.

عود إلى الجولة:

وكانت العودة إلى شارع عام غير أنني رأيتهم يحرقون في جوانبه العريضة أكواماً من القمامة ينبعث منها الدخان بشكل منفر.

ولا أدري لماذا لا ينقلونها بعيداً عن الشارع لأن اليد العاملة متوفرة لديهم، وابعادها عن المدينة إلى الأراضي المزروعة أو المهيأة للزراعة يمكن أن ينتفعوا بها أو ببعضها في تسميد الأرض وإخصابها للزراعة التي تشتهر بها هذه المنطقة الشمالية من نيجيريا.

وقد وقفت في هذا الشارع العام قليلاً أتأملة فمرت بي سيارة مكتوباً عليها بالانكليزية: (قد هلب أس) ومعناها: أعاننا الله أو (الله يعيننا) على حد التعبير العامي في البلاد العربية.

وهذا الشارع الذي نظافته وجوانبه ولا نقول: أرصفته لأنه ليس فيه أرصفة بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ليست على ما يرام من النظافة ويزيدون على ذلك بأن يلقوا فيها بالنفايات ويحرقوها في بعض الأماكن

فيه ويتركون الغنم السائبة تزيده بأظلافها وبعرها سوءاً إلى سوء وفي هذا الشارع بالذات ترى سيارات جديدة وترى كثافة في مرور السيارات على وجه العموم مما يشعرك بأن أهل البلاد من الذين يملكون السيارات ويستعملونها ويحرصون عليها وانهم قادرون على ذلك خلاف ما عليه الحال في الهند حيث لا تكاد تجد سيارة خاصة في بعض المدن في الأقاليم الداخلية من البلاد ما عدا سيارات الأجرة، أو سيارات الشركات وهي قليلة أيضاً.

فندق الزيارة:

رأينا في هذا الشارع دائرة حكومية حديثة البناء عالية كأنها من البنايات الجيدة في أوروبا. وهذا من مفارقاته ولكن من الأشياء اللطيفة فيه فندق كتب عليه اسمه (زيارا هوتيل) وتعني بالهوساوية (فندق الزيارة) لأن الكلمة دخلت إلى الهوساوية من العربية فيما دخل إليها من كلمات عربية كثيرة قال بعضهم: إنها تبلغ ستين في المائة إذا حسبنا من ذلك الكلمات العربية المحرفة على ألسنة الهوساوويين منذ القدم .

السور الطيني:

ومررنا ببناء قديم من الطين الغليظ يشبه أن يكون جزءاً من سور محكم وقد بنوا على أجزاء منه دعائم من الطين أيضاً على هيئة الدعائم التي تساعد علي حفظ الحائط الطويل من الإنهيار وهي طريقة كانت معروفة عندنا في الجزيرة العربية ممايزيد المرء اقتناعاً بقوة الشبه في الماضي بين حضارة هذه البلاد والحضارة العربية رغم البعد الشاسع ما بينها وبين الجزيرة العربية ولا شك بأن ذلك التشابه مبعثه التشابه في

البيئة الجغرافية أو التقارب في ذلك على الأقل، ومبعثه وجود وسيط بين الحضارتين قد يكون في صحراء افريقية أو في جزء من جنوب المغرب العربي.

ثم واصلنا سيرنا فسلكنا شارعاً اسمه (مايدقري رود) عليه مسجد كبير المساحة، حيث البناء ذو منارات أربع ذات طراز مالي قديم. ومالي: منسوبة إلى حضارة مالي التى خلفتها في الاسم في الوقت الحاضر جمهورية مالي في غرب افريقية، وأخبرنا إخواننا المرافقون أن هذا المسجد على كبره واتساعه وعظيم ما أنفق فيه قد بناه رجل واحد اسمه الحاج زكريا عيسى.

وقد دخلنا أفنيته الخارجية فإذا بها واسعة بعضها مبلط بالأسمنت وبعضها قد غرست فيه أشجار العمبة (المانقو) ولا تزال صغيرة لأن المسجد لم يكتمل بناؤه إلا قبل سنتين كما أخبرونا بذلك.

كما غرس في أجزاء منه أشجار(النيم)، التي نعرفها في مكة المكرمة وجدة بهذا الاسم وهي من أشجار الظل ولزهورها رائحة عطرية خاصة وان كانت لا تعجب بعض الناس وينتفع بأخشابها في تسقيف البيوت التي تبنى على الطراز القديم كما ينتفعون بورقها في العلاجات الشعبية ضد أمراض من أمراض البطن وأمراض الجلد على هيئات مختلفة.

وانتقلنا من هذه الأحياء التى يمكن أن يقال إنها أحياء شعبية وإن لم تكن قديمة إلى ضاحية جميلة لولا أنه يكدر من منظرها وجود أكوام من القمامات مهملة في بعض ميادينها وشوارعها العريضة.

وفيها أشجار منسقة بعض الشيء وفي بعض أماكنها زهور قليلة لا شك بأنها لو لقيت العناية اللازمة لأصبحت من أجمل الضواحي رغم الجفاف الذي يسيطر على ا لمدينة بل المنطقة في هذا الفصل لأن الماء موجود في النهر يمكن سحبه منه لزراعات التجميل ويمكن ان يؤخذ الماء من المياه الجوفية في الأرض بواسطة الآت رافعة.

وهذه الضاحية ذات مساكن متفرقة تفصل بينها مساحات من الفراغ غير المطلق وإنما هو يوجد فيه بعض الأشجار النافعة.

وفي طريق العودة إلى مركز جماعة (نصر الإسلام) رأينا رجلاً من الطوارق أو التوارك كما يسمونهم هنا وقد تلثم بلثام سميك شامل لوجهه ما عدا الأنف وما فوقه وشاملاً لرأسه بل هو كومة مكومة على رأسه ولكنه قد رفع طرفي كمي ثوبه الواسعين إلى كتفيه فأصبح جنبه وما تحت أبطه إلي ما تحت سرته الذي عليه سرواله مكشوفاً للنظر فكأنه الذي قيل فيه المثل العامي (يا مغطي الرأس والبطن مخليها).

وفي مركز أنصار السنة التقينا بعدد من المشايخ منهم الشيخ محمد عبدالقادر إمام جامع السلطان وقد وضع جزءاً من عمامته التي على رأسه تحت حنكه فسألته مداعبًا: أأنت من الطوارق؟ لأنني لا يزال في ذهني منظر ذلك الرجل الطارقي؟ فأجاب: لا ولكن العمامة المحنكة سنة كما تعلم.

كما التقينا فيه أيضًا بالشيخ إبراهيم عرب عضو جماعة إزالة البدعة وإحياء السنة ومن المشهورين بتلاوة القرآن الكريم تلاوة جيدة مرتلة.

في الأسواق الشعبية:

بدأت الجولة الثانية في هذا اليوم في الخامسة عصراً وكان أول شيء

مررنا به المكتب المركزي للخطوط الجوية النيجيرية في مدينة كادونا فوجدناه في الخامسة وخمس دقائق مغلقاً رغم كوف الشمس لم تغرب بعد، وقالوا: إن عملهم ينتهي في الخامسة.

ويقع على شارع (أحمد وبيللو) أطول شارع وأهمه في مدينة (كادونا) وهو مسفلت سفلتة جيدة وفيه رصيفان على الجانبين وثالث في الوسط وكلها مرصوفة بالاسفلت، ونظافته معتنى بها وليس فيه أثر لمجاري المياه المستعملة التي هي موجودة في أكثر المدن النيجيرية وربما كانوا قد سقفوها وأحسنوا في سترها عن العيون.

فقصدنا بعد ذلك أسواقًا شعبية خالصة. وكان رفيق الجولة من المقيمين في كادونا الشيخ إقبال أحمد وهو هندي متخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة ومبعوث من دار الإفتاء في المملكة للدعوة إلى الله في هذه البلاد.

وبدأ السوق ببسطات أي بضائع معروضة على الأرض دون أسعار محددة وإنما يخضع البيع والشراء فيها للرغبة في الشراء وتقليب السلعة ثم المساومة على ثمنها وهذه الطريقة هي فيما يظهر الطريقة المفضلة في البيع والشراء لدى الأكثرية من الشعوب الإفريقية.

وهناك بسطات على العربات التي تدفع باليد.

وكل هذه في ساحة قبل السوق الشعبي الرئيسي. وأغلب البضائع في العربات هي بضائع من المصنوعات الحديثة المستوردة.

وبعد ذلك جاءت مجموعة من البسطات والحوانيت فيها الأقمشة وأغلبها من صنع أجنبي وهناك صناعة نيجيرية من الاقمشة أغلبها من

الذي تلبسه النساء على هيئة فوطة تلف حول الجسم. وهناك اقمشة أخرى تصنع في نيجيريا أيضاً ولكنها غير كثيرة ولا عالية المستوى.

ووصلنا إلى السوق الشعبي الذين يبيعون فيه الخضراوات. وكانت في جيبي بعض النقود فسألت إخواني من أهل كادونا عن الأمن هنا وعن النشالين الموجودين في لاجوس الهم نظراء هنا؟ فأجابوا: لا، الأمر مختلف هنا وكان الأمن أحسن كثيراً. بل لم يكن يوجد جرائم أو سرقات غير عادية في القديم. ولكن في السنتين الأخيرتين صدرت مدينة لاجوس إلينا بعض عصابات السطو والنهب والحكومة تشدد عليهم تحاول منعهم غير أن بعضهم ينشىء علاقات نفع مع بعض الصغار في الشرطة إلآ أن الأمن لايزال جيداً ولا يمكن مقارنته بالأمن في لاجوس أو إبادن.

وكان أول ما يلفت النظر في هذا السوق وجود الطماطم الرخيصة بالنسبة لما هي عليه في لاجوس أو في اكرا عاصمة غانا وذلك لأنهم يعتبرون هذا الوقت هو موسمها. ويبيعونها بالكومة، مكونة من ثلاث أو أربع حبات بعشرين كوبو وهو خمس نيرة أي: ٢٠٪ من النيرة.

ورأيت زبدة في قدح تحتها قليل من اللبن قالت البائعة إنه بسبع نيرات وقد قدرته بكيلو ونصف على حين قدره زميلي الشيخ عبدالعزيز الربيعان بكيلو واحد. وهذا غلاء زائد أكثر مما هو عندنا بكثير.

ويمكن معرفة غلاء المواد ا لغذائية المعتادة في بلادنا وأكثر العالم إذا عرفنا أن الكيلو من السكر منه الذي رأيناهم وضعوه في أكياس بيضاء ويبعونه بنيرة واحدة وكيس السكر (٥٠) كيلو بخمس وثلاثين نيرة .

وقل ما شئت عن غلاء عصير البرتقال والحليب المستورد من الخارج.

وفي هذا السوق كما في الأسواق الافريقية في غرب افريقية لا بد من أن يلاقي المرء نقلهم المفضل وهو (القورو) الذي يأكلونه ويوزعونه في المناسبات السارة كحفلات الزواج والترحيب بقدوم الغائبين.

وقد رأيت (القورو) هنا بمقاديركبيرة وأكياس ضخمة ما بين أخضرطري وشيء قد دخله الجفاف وكذلك لا يعدم المرء أن يرى فيها شيئًا شائعا في كل افريقية الغربية تقريباً وهو أواني القرع ومن شجرة غيرها من ثمارها فهم يجعلون ذلك الثمر ييبس في شجرته ثم يأخذونه ويزيلون ما قد يكون في وسطه من ألياف أحيانا لا تكون كثيرة ويستعملونه بمثابة الإناء للسوائل والأشياء الباردة. وهو جيد لذلك لأنه خفيف الوزن رخيص الثمن ليس للصنعة فيه عمل كثير وقد سألتهم عن ثمن واحدة منه كبيرة فأجابوا: إنه نيرة واحدة.

وبينما كنا نتمشى في السوق أبصرنا كتابة بالعربية على حائط وهي جملة (هذا مسجد لله) وهو مصلى صغير قد جعلوه في هذا السوق يصلي من يشاء الصلاة وليس هو بالمسجد الكامل.

جلد البقر المشوي بجانب المسجلات:

من المفارقات الطريفة في ترافق الأشياء الوطنية الخالصة العريقة الاستعمال في البلاد بالأشياء العالمية الحديثة وجود محلات وبسطات تبيع جلد البقر المشوي الذي يعدونه كذلك ويبيعونه للأكل وهو على أنواع منوعة وبعضه تراهم قد عالجوه وطبخوه وتعجب لهم كيف

يحبونه، ولكن تنوع أصنافه وكثرة عرضه يدل على رغبتهم فيه. وهم يبيعونه بالقطعة أو بالكومة الصغيرة من القطع لذلك لا نجد وسيلة لبيان سعره لديهم غير أنني سألت عن كومة صغيرة عند إحدى البائعات فأجابت بأن ثمنها نيرة ونصف.

وهذه الجلود البقرية المعدة للأكل والمعروضة للبيع تحوم حولها الذبان، ولا تراعى فيها قواعد النظافة ويوجد بجانبها بعض الباعة الذين يعرضون أجهزة الراديو الحديثة والمسجلات العالمية.

وبجانب هذين لحم مطبوخ عليه ذبان قالوا: إنه لحم ا لوعل، وسمك مملح، وآخر مدخن قالوا: إنهم يدخنون عليه حتى يقرب من أن يكون بمثابة الشواء له حتى يمنعه ذلك من التعفن ولأن بعض الناس يفضل طعمه على السمك المطبوخ.

وأسماك يابسة قديمة بدليل أن البائعين رأيت أكثر من واحد منهم وهم يقطعون للمشترين منها يستعملون المنشار لقطعها وهي تبدو تحته أصلب من الخشب اليابس لأن السكين لا تقوى على قطعه.

وأما الشئ الذي لابد من وجوده أيضًا في الأسواق الافريقية فهو الفلفل الحار وهو هنا أنواع كثيرة. وهو لازم لأكثر أطعمتهم الرئيسية التى كثيرًا ما تكون من نوع واحد صلب يكون مثل الكسافا واليام أو رقيقا نوعًا ولكنه يحتاج إلى ما يسهل هضمه في الجسم مثل دويفة الذرة والدخن.

وأما البصل الذي لا تجود زراعته في المناطق الاستوائية، ولم يكن السكان الأصليون في تلك المنطقة يألفون أكله فهو موجود لكون المنطقة

هنا ليست استوائية بل هي وراء ذلك إلى جهة الشمال كما اسلفنا وهي ذات جو شبيه بالصحراوي لذلك نجد البصل فيها جيداً كثيراً ومع ذلك فهو ليس برخيص نعرف ذلك من سعر الأكوام التي يبيعونها لأنهم لا يبيعونه وزناً كما هي حالهم في أكثر المعروضات التي يبيعونها. ولكن يمكن تقريب معرفة سعره بأننا رأينا كومة مؤلفة من رأسين من البصل كل واحد في حجم البيضة فقالوا إن سعرهما عشرة كوبات وهي عشرة أجزاء من مائة جزء من النيرة.

وفي هذا السوق أشياء من النباتات وأشباه الحجارة لم أعرفها ولم يكن الذين معي يستطيعون توضيحها لأن الذين هم من النيجيريين لا يحسنون العربية تماماً والذي يحسن العربية وهو الشيخ اقبال أحمد لا يعرف الهوساوية ولا يعرف بعض عادات الناس في هذه البلاد.

ومن ذلك أنني طلبت منه أن يدلني على اللبان الذي تنتجه هذه ا لبلاد لكي اشتري منه فدلني على شيء شبيه به وإذا هو الصمغ الذي تخرجه شجرهم ويظهر من كثرة الخضروات وتنوعها هنا أنها أكثر منها في غانا التي زرتها قبلها وأرخص إلا أن الباميا هنا تباع بالكومة المؤلفة من حبات محدودة منه كما هو عليه الحال في غانا مثلاً، رأيت كومة عند أحد الباعة قال: إن سعرها عشرة كوبات.

وكذلك الخيار والباذنجان الأسود والرجلة كله موجود ولكنه يباع بالواحدة أو بالكومة ولا يوزن وكأنهم هنا لم يألفوا وزن هذه الأشياء الصغيرة.

ومن اللطيف المؤذي هنا أننا مررنا على باعة الفلفل المطحون

والزنجبيل الذي هو مطحون أومعالج فأخذنا نعطس مع العاطسين وأخذ المارة يمسحون عيونهم وانوفهم.

ومن المناظر الغريبة علينا مناظر أكوام من كوارع البقرة المطبوخة وهي كبيرة الحجم لأن بقرهم كبير الحجم وقد طبخوها ويبيعونها جاهزة للأكل إلا أنها ليست رخيصة بالنسبة لثمنها في بلادنا مثلاً فقد ذكرت البائعة إن ثمن الواحد منها نيرتان.

وقد شارفنا على دخول سوق السمك واللحم إلا أن الوقت كان ضيقا. ورائحة السمك والذباب الذي يحوم على مدخل السوق صدنا عن ذلك.

ولكننا وجدنا قسماً خارج السوق يبيع بطون الأغنام والأبقار من المصران والرئات والقلوب وكله غالي الثمن غير نظيف بل عليه أكوام الذباب مما يذكرنا بحالة كانت عليها بلادنا في الماضي.

ولكن إذا كانوا لا يستطيعون أو لا يجتهدون في أن يكون المكان نظيفاً فإن موقع البلاد وجوها المعتدل غير الإستوائي والمراعي الموجودة فيها كل ذلك مما رشحها لأن تكون بلاداً منتجة للحوم بشكل يكفي حاجة المواطنين ويزيد للتصدير وبأسعار مناسبة.

والحقيقة أن هذه المنطقة في حالتها الحاضرة تنتج من المواشي ما يصدر إلى بعض الولايات الأخرى ويستهلك بعضه هنا إلا أن ذلك على نطاق محدود وبأسعار مرتفعة.

والباعة في هذه الأسواق ليسوا كلهم من النساء وإنما هناك باعة من الرجال، وأما النساء فإنهن نساء الشمال النيجيري ويختلفن عن نساء غرب نيجيريا بأنهن هنا يكون لأكثرهن شعر أغزر وأطول ولذلك تجعله بعضهن على هيئة ضفائر دقيقة وأنوفهن أكثر استقامة، ولباسهن

بعضه من الفساتين المقلدة للغربيات وبعضهن يلبسن الفوط التي تلف الواحدة منهن الفوطة حول ا لنصف الأسفل من الجسم وفوق الأعلى صديري أو شيء يشبه القميص ولكنه محلي يختلف عن القميص الأفرنجي المألوف.

إلى نهر كدونا:

وهو النهر الذي سميت على اسمه هذه المدينة كادونا لأن أول ما نشأ منها كان على ضفة هذا النهر.

ذهبنا إليه مع شارع لاجوس وفي شارع لاجوس هذا حركة مرور نشطة للسيارات مثل غيره من الشوارع ولكن الذي فيه أكثر بصفة ملفتة للنظر هو وجود عدد من المتاجر والحوانيت وإن كان الشارع غير مكتظ فالافارقة كما قلت اعتادوا على الشراء من الباعة الذين يعرضون بضائعهم على الأرض أو فوق العربات إلاّ في الحالات القليلة.

وكان اتجاهنا جهة الجنوب لذلك خرجنا منه إلى شارع رئيسي آخر يقال له (شارع جنيتشن) ثم خرجنا منه إلى طرق ترابية في ريف فيه أشجار موز قليلة وأشجار من أشجار العمبة (المانقو) الضخمة التي هي قد حملت وأكثرت الحمل من الثمار إلا أن حملها لم ينضج بعد.

ورأيت في هذا الريف عدداً من القماري الذي هو نوع من الحمام البري كان يأتي إلى بلادنا مهاجراً في الربيع والخريف فنصطاد منه ونحرص على ذلك ولكنه هنا فيما يظهر مستوطن كثير سهل الصيد غير أنه يظهر أن القوم هنا لا يلاحقونه بذلك ، لذلك لا ينفر من الآدمي إلا إذا اقترب منه جداً.

ووصلنا إلى النهر وهو غير بعيد بل هو في جنوبي المدينة نفسها عليه جسر غير أنه لا ينزل إليه إلاّ بالقدم وتحف به المنازل.

وأما هنا في خارج المدينة حيث لا منازل ولا عمارة على ضفتيه إلا زراعة قليلة عجبت من كونها كذلك مع وجود هذا النهر الذي يمكن أن توضع عليه الآت رافعة للمياه أوعلى الأقل تغرس عليهما الأشجار النافعة.

والنهر نفسه يجري جرياناً ضعيفاً وفي مجراه الواسع الذي يمتلئ في موسم الأمطار توجد كميات من المياه الراكدة رأيت جماعة من المواطنين يسبحون فيها.

ويقع الموضع الذي وقفنا عنده من النهر على بعد عشرة كيلات من قلب المدينة في مجرى يتجه للجنوب وهو مهمل دون أية عناية حتى إنني رأيت كثيراً من القمائم ملقاة فيه بعضها قد تحلل وبعضها باق سيئ المنظر مثل بقايا علب الصفيح والمواد الصلبة.

حتى الريف المحيط به أرضه ترابية يتطاير منها الغبار رغم وجود بعض الأشجار التي لا تحتاج إلى سقي بسبب قرب الماء الجوفي من سطح الأرض وفيها آثار زراعة على المطر.

قبر أحمد وبيللو:

الزعيم أحمدو بيللو أحد الأشخاص الذين كان لهم فضل عظيم في رفع شعار الإسلام في هذه البلاد وآثار جليلة لا تزال باقية فيها. وقد قتل شهيداً إن شاء الله لأن الذين قتلوه إنما فعلوا ذلك لأنه أحد زعماء المسلمين ولأنهم خافوا من أن تقوى شوكة المسلمين بسببه وبسبب إخوانه من الزعماء المسلمين في نيجيريا. وكان قتله في عام ١٩٦٦م في نفس الوقت تقريباً الذي قتل فيه أبو بكر تفاوا بيلوا رئيس وزراء الحكومة الإتحادية النيجيرية، ولقد عرفته في المدينة المنورة عندما كان يتردد عليها يكثر من العمرة وبخاصة في شهر رمضان ويكرر الحج إلى بيت الله الحرام وأعجبت بشخصيته المتميزة وكونه دون اكثر الزعماء المسلمين الذين نعرفهم يفعل ذلك ويعلنه ولا يبالي.

الزعيم السيد أحمدو بيللو

لذلك رأيت أنه من اللازم وقد زرت بلدته التي قتل فيها بعد ان ترك آثارًا لا تنسى أن أزور قبره وأسلم عليه.

ويقع في حي يسمى (أنوا سركي) ومعناه: حارة الأمير لان (أنوا) بالهوساوية معناها: حارة وسركي: أمير.

وصلنا جانب البيت الذي دفن فيه فوجدنا المسئول عن رعايته شخصًا مسنًا قال إن عمره (٩٨) سنة في رجليه حذاء مغربي أبيض وعليه ثوب ارجواني اللون فضفاض مزين بنقوش من القماش أحدها على هيئة دائرة في وسطها نجمة وفوق رأسه عمامة محنكة قد جعل جزءًا منها على حنكه. ولما قام أخذ معه عصا طويلة كان طولها ينوف على طوله.

وقال إن اسمه الحاج محمد ابو بكر. وذهب معنا من المكان الذي هو فيه من البيت إلى الشارع فطرق بابًا انتظرنا ملياً قبل أن يفتحه أحدهم فإذا به قد جعل مدخله مخزنًا للبصل ولأشياء أخرى ثم مشينا مع ممر مبلط أفضى إلى الغرفة التي فيها القبر.

وقد رفعوا قبره بحوالي المتر على شكل جدار مربع مستطيل له سقف وبجانبه زوجته التي قتلت معه واسمها (عايشة وزير جنيدو)

وقد شممنا رائحة دخان ا لعنبر تنبعث من القبر لأنهم كانوا فيما يظهر قد دخنوا الحجرة بأعواد العنبر قبل وصولنا بهنيهة.

وكأنما كان بعض الناس يودون الدخول إلى القبر والسلام عليه ولكنهم لا يستطيعون لأننا رأينا طائفة كبيرة منهم قد انتهزوا فرصة

وجودنا ونحن حسبما عرفونا للقائم على القبر وفد سعودي قادم من مكة المكرمة فدخلوا معنا يتشرفون وبعضهم يسلمون.

والحقيقة أن مظهر القبر هو مظهر بدعي لا ينبغي أن يكون هكذا لانه في قبر قد رفع بناؤه داخل غرفة ربما كانت قد بنيت عليه وربما كانت موجودة من قبل.

وأما زوجته فإن قبرها نفسه كان شرعيًا لم ترفع جوانبه أكثر من الشبر وعليه هو نفسه حصباء أقل من ذلك إلا أنهم قد أحاطوا ما حول قبرها بجدار لاسقف له مرتفع حوالي المتر غير ملاصق للقبر.

ومسجده:

ومن قبر (أحمدو بيللو) ذهبنا إلى مسجده وقد أوشكت الشمس على المغيب ويسمونه (سلطان بيللو مسك) أي: جامع السلطان بيللو. فوصلناه بعد غروب الشمس بلحظات إلا أنهم لم يؤذنوا في المسجد بعد. وقال لنا احدهم: إن عادة المؤذن ألا يؤذن إلاّ بعد غروب الشمس بقليل من باب الاحتياط.

ويقع المسجد إلى الجنوب من بيته الذي قتل فيه وإلى الشرق من الشارع الهام بل أكبر الشوارع في مدينة كادونا وهو المسمى على اسمه (شارع أحمدو بيللو).

وتحيط بالمسجد باحات مكشوفة مفروشة بالحصباء الحمراء الجميلة الصغيرة الحصا مما يجعل الجلوس عليها مريحًا.

ولذلك رأينا فيها بالفعل جماعات كثيرة من الناس متفرقين بعضهم

يتوضؤن ومن الطريف أن بعضهم كانوا قد أحضروا معهم علبًا من الصفيح المستعمل أو زجاجات مليئة بالمياه ووضعوها أمامهم يريدون أن يتوضؤا منها إذا أذن المؤذن.

وكان الجو جميلاً فهو لطيف ليس فيه من الحر أو الرطوبة شيء والباحات واسعة بحيث لا يصل إليك شيء من غبار السيارات إذا مست جوانب الشارع غير المسفلتة بل لا ترى الغبار إلا في أماكن بعيدة حيث قد اختلط بالدخان من بعض البيوت التي تستعمل الحطب في الطبخ والإخوة المسلمون قد حضروا إلى الصلاة بكثرة ملفتة للنظر قبل الأذان مما لا يكاد يوجد له نظير في بلادنا.

وقد غرسوا في هذه الساحات أشجارًا من أشجار الظل كالنيم من أجل أن تكون ممتعة في النهار كما هي ممتعة في الليل.

ولا يكدر هدوء البديع في هذا الجو الروحي إلا هدير السيارات وزمجرة محركاتها وهي تسرع في شارع أحمدو بيللو الذي أمتلأ بها.

ولما عجبت من سعة هذه الساحات، وحسن وضعها اخبروني أنها تمتلئ في يوم الجمعة حتى يتجاوزها اجتماع المصلين إلى الشارع المحيط بها.

والحقيقة إنه يمكن استيحاء فكرة مثل هذه بأن تكون موجودة في بعض المساجد الرئيسية حتي يقبل المرء على الصلاة قبل أن يحين وقتها وهو يعرف أنه سيقضي بعض ا لوقت في جو مفتوح يستعد فيه للصلاة، ولا يكون في المسجد نفسه حيث يتطلب ذلك آدابًا خاصة في الجلوس والحديث وطهارة البدن.

وقد اخبرنا إخواننا وبعض المصلين في المسجد أن بعض الناس يأتون إلى هذه الساحات فيبقون فيها قبل صلاة المغرب، ويمضون ما بين صلاتي المغرب والعشاء ولا ينصرفون إلا بعد أن يصلوا العشاء.

وهناك درس ديني باللغة الهوساوية بين الصلاتين المذكورتين فيستمعون له أيضاً.

وليسوا كلهم من المقيمين قريباً من المسجد وإنما يأتون من أماكن بعيدة بدليل أن عدداً منهم يأتون بسياراتهم يوقفونها في مواقف خارج هذه الساحات المخصصة لانتظار الصلاة وكثير منهم جاؤا بالدراجات النارية وادخلوها هذه الساحات وأوقفوها فيها فهم يصلون وهم أمامهم، أو بين أيديهم.

وبعد حوالي ثلث ساعة من غروب الشمس أذن المؤذن بسرعة، ثم أقام بعد الأذان مباشرة لأن الإمام والمأمومين كانوا قد حضروا كلهم تقريباً قبل ذلك.

فشرع الإمام بالصلاة بعد الإقامة مباشرة وقرأ بعدها سورة النصر مباشرة كذلك أي: من دون أن يفصل بينهما بسكتة لطيفة كما عليه أكثر الناس وخصوصاً في بلادنا.

والإمام قد لبس برنساً مغربياً أبيض اللون وهذا يدل على أنهم أخذوا هذا اللباس من أهل مالي الذين أخذوه من أهل المغرب ولا يزال المغاربة ووجهاء القوم من أهل مالي يلبسونه هذا إذا لم يكن المغاربة هم الذين اخذوه من (الماليين).

وقد حضر الصلاة جمع غفير أمتلأ بهم المسجد. وصلت أعداد هائلة منهم في الباحات وكان عدد من الناس يبلغون عن الإمام أي: يكبرون

خلفه إذا كبر بصوت مرتفع كما كان ا لمؤذن نفسه يفعل ذلك.

وقابلنا بعد الصلاة الأخ محمد عثمان كانكيا من المشرفين على بناء المسجد ومن الذين يبذلون الجهد والمال في ملاحظته حسبما أخبرنا به مرافقنا الشيخ إقبال أحمد.

فأخبرنا الأخ (كانكيا) أن المسجد بني عام ١٩٦٢م وأنه تبين لهم الآن أنه أضيق عن أن يستوعب المصلين الذين تزايد عددهم.

فقلت له: إنني لاحظت ذلك وإنني أعتقد أنهم إذا سعوا في مشروع بتوسعته من هذه الساحات الفسيحة التي بجانبه فإن إخوانهم المسلمين في الخارج وبخاصة في المملكة العربية السعودية سيساعدونهم على ذلك.

أبو بكر تفاوا بيللوا: الرئيس الاتحادي السابق لنيجيريا – على يمينه السيد أحمدو بيلو من زعماء المسلمين الذين اغتيلوا لتمسكهما بالإسلام. وقد قتل أبو بكر في انقلاب عسكري في ١٩٦٦/١/١٥م

يوم الثلاثاء ١٤٠١/٥/٢٥هـ ٣١ مارس ١٩٨١م

ذهبنا للمكتب الرئيسي لخطوط الطيران النيجيرية فاشترينا تذكرتين وحجزنا للسفر إلى مدينة (صوكوتو) في أقصى الشمال النيجيري.

وكانت قيمة التذكرة الواحدة ٤٤ نيرة. وقد استغرق شراؤها بعض الوقت لأنها لابد من أن تمر على عدة موظفين. فمثلاً قطعتها الموظفة وكتبت الاسماء واحالتنى إلى شخص أظنه مديراً فأحالني إلى خازنة وهي أمينة الصندوق فأعطيتها المبلغ وختمت على التذكرة بخاتم الوصول ثم اعادتني إلى المدير الذي أخذ النسخ التي يحتفظ بها عادة من التذكرة ثم اعادني إلى الموظفة الأولى فوضعت الحجز عليها.

مع أن كل هذه الأعمال تتم في أكثر بلدان العالم ومنها بلادنا السعودية عند موظف واحد وبسهولة.

بيت الشيخ أبي بكر قومي:

والشيخ أبو بكر غائب فهو الآن فهو في المدينة المنورة ولكن بيته ليس بيتًا من الطراز المألوف الذي لا يزار إذا كان صاحبه غائبًا، بل هو أشبه بالمدرسة أو الرباط، فيه أناس كثيرون مقيمون ما بين ضيوف وطلبة علم أو خدم.

لذلك زرناه هذا الصباح فوجدنا فيه عدداً من طلبة العلم الذين ذكروا لنا أنهم يقيمون في هذا البيت وينامون.

واخترنا من الذين يعرفون العربية الأخ محمد السادس فحملناه رسالة للشيخ ابي بكر وجلسنا في غرفة الاستقبال وهو تبدو مع البيت كأنها في البلاد العربية لا في افريقية فالأثاث الذي فيه عربي حتى المرافق المستديرة هي فيه من طراز مصري واللوحات المعلقة كلها إسلامية وباللغة العربية.

والشيخ أبو بكر هو رئيس قضاة شمال نيجيريا السابق ومن الشخصيات الإسلامية المشهورة وهو عضو في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة عن نيجيريا وكان عضواً في المجلس الاستشاري للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ومن هناك كان أول معرفتي به.

ويقع بيته في شارع (موديبو آدم) في حي جيد في كادونا.

وقد قابلنا في ختام الزيارة ابنًا له صبيًا اسمه عثمان قال إن له أربعة عشر أخًا من أبناء الشيخ أبي بكر.

في المتحف الوطني:

أول ما يصله الزائر يمشي مع ساحة مفروشة بالحصى الغليظ في قدر البيضة أو نحوها وهو خشن تحت القدمين، ثم يدخل إلى قاعة فيها تماثيل من الخشب قديمة من عمل أهل هذه البلاد قبل الإسلام وهي تبرز الخصائص الجسدية للزنوج مثل غلظ الشفتين وبروزهما وقصر الأنف وإتساع المنخرين. ومما يستحق التنويه به أنه أبرزوا قضيب الرجل أو كل صوره عارياً تماماً دون أي لباس أما المرأة فإنهم كانوا يسترون عورتها بشيء صغير مثل (شورت) السباحة.

وهذا القسم فقير في محتوياته وكان المظنون أن تكون معروضاته أكثر وربما كان ذلك بسبب حداثة إنشائه. أو لكونه خاصاً بهذه ا لمدينة إذ يوجد في المدن متاحف أخرى.

ولذلك جاء بعدهم قسم الأشياء القديمة من العصر الحديث مثل الغلايين الطويلة – جمع غليون – وهناك تمثال قديم الصنعة نوعًا ما يمثل رجلاً أبيض على رأسه مثل القرون.

وبعد ذلك جاء دور ركن آخر فيه أوان نحاسية وخناجر، وجعب – جمع جعبة – وهي التي توضع فيها السهام التي يحارب بها الناس. ونفير ضخم في غلظ ساق الإنسان وهو الذي ينفخ فيه عند الاستفزاع أو نحوه. وسيوف مستقيمة قصيرة إلى حد ما تشبه التي تسمى عندنا القردة.

ثم نعال منقوشة أكثرها ذات لون أحمر. وطرازها غريب لا أعرف له مثيلاً. ممايدل على أنه كان من صنعهم الخاص.

وفي أحد الحوائط كانت هناك واجهة زجاجية خلفها مصحف كريم بخط مغربي جميل.

الكتابة على العظام:

وكانت هناك كتابة عربية مقروءة بخط مغربي جيداً جداً ممايدل على ان الذي كتبها خطاط قد مارس المهنة وربما يكون احد الرسميين وليس مجرد كاتب. وهي مكتوبة على عظم كتف بقرة وقد شملت الكتابة لوح الكتف وما أسفل منه من الجزء المرتفع. ولا يلاحظ من يراها أي نقص

في منظرها عن الكتابة المعتادة على الورق فاللوح صقيل يميل إلى البياض رغم قدمه، وربما كانوا قد صقلوه أو عالجوه قبل الكتابة عليه والحبر أسود ناصع، والكتابة بأسطر مستقيمة لاعوج فيها.

وكل ذلك يدل على أن الذي كتبها رجل ممارس ذو خبرة.

وهذه الكتابة العربية على هذا العظم أفادتني كثيراً في تمثل الكتابة على العظام في القديم وبخاصة الكتابة على لوح كتف البعير التي تكرر ذكرها في كتب التراث العربي.

وربما كانت هذه أيضاً على كتف بعير، لأنني لم اقرأ النص الذي يوضحها لأن كتابتة دقيقة واعتماداً على ما ذكرته دليلة في المتحف من قبيلة (ايبو) الشرقية النصرانية وكان مظهرها قد لفت نظري فهو مختلف تماماً عن مظهر المرأة الهوساوية التي هي من أهل هذه البلاد الشمالية.

فهذه الدليلة اسمها (جوليانا) وهذا اسم مسيحي وهو أمر معروف في تلك الأقسام الشرقية من نيجيريا وهي قصيرة القامة وذات وجه يميل إلى الاستدارة وليس الاستطالة كما هى وجوه عامة النساء في هذه الولايات الشمالية، وانفها واسع المنخرين جداً. وهذا أيضاً من الفروق الواضحة بين سكان شرق نيجيريا وشمالها اضف إلى ذلك سعة العينين وصغر الأنف عند (الايبو) وإن كان بعض شباب أهل الشمال يعتبرون أن بعض (الايبونيات) يمتزن بالجمال.

قالت الدليلة: إن هذا العظم هو من كتف بقرة ثم اخذت في مرافقتنا تشرح لنا أمر المتحف كله مما أفادني لأنها خبيرة فيه.

وهي بطبيعة الحال تنتظر (حلوانا) (بقشيشاً) من هؤلاء ا لعرب الذين تشتهر بلادهم بالغنى ويشتهر رجالهم بالكرم مع النساء، وهكذا قيل لنا في عدة أنحاء من بلاد العالم.

وهناك كتابة أخرى عربية على ورق قديم بخط مغربي جميل. وكتابة أخرى على لوح من الخشب كالذي كان يستعمله معلم الأطفال في الكتاتيب عندنا في القديم.

ثم إنتقلنا إلى ركن آخر فيه قلائد مختلفة من الخرز والودع وفيه مصنوعات نحاسية عادية وتماثيل صغيرة غير دقيقة الصنعة وهي من النحاس.

ثم رأينا تمثال ثعلب على رأسه شيء يشبه ثمرة الكمثرى قالت الدليلة: إن هذا هو شعار قبيلة (توك).

ومن الصور الثمينة فيه من الناحية التاريخية تماثيل لملكة بنين وتماثيل لخدم الملك وهم واقفون أمامه عراة لا يستر عوراتهم شيء وكأنما كان التستر عندهم خاصاً بذوى الشأن، في ذلك الزمان.

وعندما انتهت رؤية المعروضات وما أسرع أن انتهت بسبب قلتها ذهبنا إلى فناء في المتحف مكشوف قد غرسوا فيه أشجار العمبة (المانقو) الضخمة وغيرها فغدا أشبه بالبستان ولكنهم أقاموا نماذج في أنحاء منه تمثل الصناعات القديمة في البيئة القديمة. فمثلاً هناك منزل من الطين الأحمر حيطانه مبنية بطريقة لا تناسب فيها ففي بعض الأماكن غليظة وفي أعلاه دقيقة داخلة إلى أسفل وسقوفها من القش

وكان في أولها عدد من النسوة وهن يغزلن وينسجن بساطًا صوفيًا غليظًا مما كنا نسميه عندنا في نجد «الساحة». وغرفة أخرى فيها نسوة يعملن في تجميل إحدى النساء وهن يمثلن في ذلك الطريقة القديمة التي كانت متبعة في هذا الشأن.

ومن الطريف أنهن يكن جالسات مستريحات فاذا رأين شخصًا مقبلاً عليهن ابتدأن بالعمل ووسائلهن إلى ذلك هي الوسائل القديمة وهي تتناسب مع طبيعة الشعر عند الإفريقيات فمثلاً لابد من وجود مشط قوى جداً من الخشب لأن شعورهن غليظة معقدة. وإن كان غالب النساء في هذه المنطقة لهن شعور غير مفلفة إلا أن شعورهن معقدة، ووجدت في هذه الغرفة إحدى الجالسات ربما كانت إحدى اللآتي تمارس عليهن التجربة أوأعادة التجربة على الأصح وقد سارعت إلى تحيتنا باللغة العربية ثم حادثتنا بلغة عربية مفهومة وقالت إنني من الكاميرون ومن المعروف الذي خبرته بنفسي أن شمال الكاميرون يتكلمون بالعربية وأنها هي اللغة الوحيدة المفهومة بين طوائف الشعب هناك لأن هناك عدة لغات أخرى للقبائل والأقاليم لا يفهم بعض اهلها بعضا.

ثم رأينا نساء ينسجن سجاداً ملونًا ثم محلا لبيع التحف والمصنوعات المتعلقة بها من صنع هذه البلاد وهي غالية وليست بذاك من جهة الجودة.

ثم دكان تقليدى كبير مبني من الطين وذو سقف متطامن.

وفي أحد المحلات كان هناك رجل شديد السواد يصنع آله موسيقية فلما سلمنا عليه مثلما نفعل مع كثير من إخواننا كلمنا بعربية فصيحة وقال ان ذلك من السودان والظاهر أنه أقام هناك مدة طويلة وفي محل آخر فيه دكان حداد قديم كما يمثلونه ويقصدون بذلك الحداد القديم في بلادهم بطبيعة الحال رأينا ثلاثة من العاملين فيه يعرفون كلهم اللغة العربية وقالوا إنهم من أهل تشاد.

ومن المعلوم الذي عرفته بنفسي أيضًا عندما زرت تشاد أن اللغة العربية هناك هي الشائعة من بين جميع اللغات وأنها مفهومة في كل أنحاء تشاد لأن الناس يستطيعون التخاطب بها وحدها دون غيرها من اللغات المحلية. إلا أنهم يعرفون لهجة عامية أقرب اللهجات العامية إليها في البلاد العربية لهجة السودان والحجاز.

وعدنا إلى بوابة الخروج وكان ممرات الفناء الخارجي المكشوف كلها مكسوة بكسر الحجارة وقد أقاموا تمثالاً في حديقة الفناء بالحجم الطبيعي (لأبو بكر تفاوا بليوا) أول رئيس وزراء لجمهورية نيجيريا بعد الاستقلال.

هذا المساء:

مضى هذا المساء في استقبال الزوار غيرْ أن إدارة الفندق المريح الجميل فندق حمدالله لم تنسنا من التكدير إذْ أرسلت إلى كل واحد بطاقة تقول فيها يجب أن تتصل بالإدارة ولما اتصلنا بالمسئول أحالنا على الخازن أي: أمين الصندوق فقال: يجب أن تدفعوا مبلغًا من المال

لأن الرصيد الذي لكم لا يزيد كثيراً على أجر الغرف. فأخبرناه أننا سنسافر غداً. فرضي بأن يدفع كل واحد أربعين نيرة فقط وهي تزيد على أجرة الغرفة اليومية ولدينا رصيد كما يقول غير كبير ولكنه يريد – على عادة الفنادق في نيجيريا – أن يأخذ الأجر مقدماً. وأن يأخذ معه زيادة من المال يضمن ألا يأكل النزيل من الفندق شيئًا ولا يدفع ثمنه أو لسبب آخر مما يسميه تأميناً وهذا شيء كنت أنفر منه لأنه يدل على عدم الثقة بالنزيل ولكنه أصبح الآن مألوفاً لدينا في هذه البلاد.

وعندما قال لهم الشيخ إسماعيل بن عتيق أنه سيتخلف بعدنا ليلتين لأننا كنا قد اتفقنا معه على أن نذهب إلى (صوكوتو) ويبقى هو بعدنا في كادونا للعمل في إنهاء أمر المساعدات المتبقية قال له المسئول يجب أن تدفع مائة وثمانين نيرة مقدماً. ولم يكن المبلغ بالنيرات موجوداً معه بل يحتاج الأمر إلى صرف الدولار، والفندق يصرفه بخمسين كوبا أي نصف نيرة وهو في السوق الحرة بثمانين كوبا. لذا قرر أن يخرج من الفندق مع خروجنا ويكون في فندق آخر غير هذا.

يوم الأربعاء ٢٦/٥/١٤٠١هـ ١ إبريل ١٩٨١م:

خرجنا من فندق (حمدالله) شاكرين لما فيه من استعداد وما وجدناه من راحة ذاكرين ذكراً غير حسن معاملة العاملين فيه من ذكور وإناث فهي تتسم بالغلظة والخشونة وعدم المجاملة وهم حتى مع علمهم بأننا عرب مسلمون يعاملوننا كما يعاملون الأوروبيين الذين يسمونهم بيضاً بشيء كثير من الترفع والعنجهية.

وكان الخروج مع شارع المطار الجيد، واعترض السيارات جنود يوقفونها ويفتشونها ولكنهم لم يفتشوا سيارتنا التي هي سيارة جماعة نصر الإسلام مكتوباً عليها ذلك بالعربية والإنكليزية.

وقال لنا إخواننا: إن الجنود يفتشون الناس من أجل السرقات يخشون أن يكون مع بعضهم أمتعة مسروقة يكون لدى الشرطة في الغالب علم بأوصافها.

وهذا أمر صادفناه في لاجوس وإبادن.

ومررنا بمحلة تسمى (كاوو) واقعة بين قلب المدينة وبين المطار، وكانت مظاهر الجفاف وبعد العهد بالأمطار التي تتجلى بوجود الحشيش اليابس، والغبار على الأشجار والغبار الذي تثيره السيارات عند مرورها مع طريق ترابي هي المسيطرة، ولذلك تبدو التربة هنا بوضوح ذات لون أحمر.

ومن الأشياء البارزة التي يراها الذاهب إلى المطار خزان ضخم للمياه قد رفعوه فوق أعمدة ضخمة من الحديد الخالص.

في مطار كدونا ثانية:

قالوا لنا لا نستطيع أن نتسلم الحقائب حتى يأتينا خبر من الطائرة ولأن المطار لم يأته خبر عن توجهها حتى الآن.

وانتظرنا قليلاً وكان قد لحق بنا بعض الإخوان من أهل كدونا مودعين جزاهم الله خيراً منهم الأخ المجاهد في الله المفنى وقته في الدعوة إلى الله ، حسين أحد الأعضاء البارزين في جماعة إزالة البدعة وإقامة السنة.

وقد قدموا إلينا في المطار رجلاً قالوا إنه كبير القدر. وقالوا: إنه مسافر معكم وسوف يأخذكم بسيارته إلى الفندق لأن سيارته تنتظره في مطار صوكوتو.

وكانت بنا حاجة إلى ذلك لأنه ليست لدينا معلومات كافية مسبقة عن مدينة (صوكوتو) فشكرناه وشكرناهم.

وكانت قاعة المسافرين الوحيدة في المطار صغيرة كما قدمت وهي في الوقت نفسه قاعة الواصلين وازدحمت بالناس حتى لم يجد أكثرهم مقاعد مع أنها مليئة بالمقاعد ولكن عدد الناس الموجودين كان أكثر ثم نادوا على ركاب (صوكوتو) و(كانو) أن يتقدموا وكان أكثرهم واقفين منذ وقت أمام أمتعتهم ومنهم بعض الأوروبيين.

وتولى إخواننا جزاهم الله خيراً – أمر ذلك وأوقفونا بطابور أمام

الطائرة بمجرد أن سمعوا صوتها تستعد للنزول ولم يطيلوا وقوفنا هذّه المرة.

وكانت الطائرة المعتادة في الخطوط الداخلية في نيجيريا بوينج ٧٣٧ ذات المحركين الاثنين، وعندما صعد أكثر الركاب كانت هناك طائرة أخرى قادمة فسحبوا السلم من طائرتنا إليها وأنزلوا السلم الصغير الموجود في الطائرة متصلاً بها وهو سلم كاف.

وجعلت أتأمل المطار وأنا في الطائرة فأجده كما عهدته متوسط السعة غير أن في بعض نواحيه طائرات عدة من صغيرة ومتوسطة وطائرات حوامة (هليكوبتر).

وكان ركاب اثنتين من الطائرات أحداهما طائرتنا قد خرجوا معنا من قاعة المسافرين رغم كون الطائرة الثانية لم تكن قد أتمت الوقوف فأخذ الموظفون يعزلون الركاب بعضهم عن بعض لأن بعضهم لم يعرف أي الطائرتين يركب.

وعندما اقلعت الطائرة في العاشرة إلا عشر دقائق ابصرنا مدينة كدونا ذات عمارات متفرقة وبيوتها سقوفها من الصفيح وخضرة غير كثيفة.

وعندما أمعنت الطائرة في الجو كان المنظر من تحتنا منظر أراض جافة وأشجار شبه صحراوية ولكنها خضراء، ومنازل متباعدة، بل متبددة، إذ قد ترى من الطائرة منزلاً أحيط بحوش من أغصان الأشجار وليس حوله شيء وربما كانت هذه البيوت من بيوت الذين هم بين البدو

والحضر أو بيوتًا مؤقتة لقوم يخرجون إليها في وقت الزراعة عند نزول الأمطار لأنني لاحظت أن آثار الحراثة موجودة في الأرض كلها وإن كان لا يوجد فيها الآن عود أخضر.

ثم زاد منظر الأرض الأكثر جفافًا ونحن نمعن في جهة الشمال التي يفترض أن تكون أكثر جفافًا من أراضي الجنوب ولأن ا لطائرة قد أصبحت في طيرانها أعلى مما كانت عليه من قبل حتى خيل إليّ أنها تطير فوق أراض من أراضي المملكة الصحراوية حتى الوديان الجافة موجودة فيها بشكل ظاهر.

ثم تجاوزناها فوق سهل يظهر كأنه في الصحراء لولا وجود بعض الأشجار القليلة الخضراء وزاد المنظر شبهًا بمنظر الصحراء وجود قرية بيوتها من الطين ليس حولها أي شيء أخضر فهي بهذا تشبه في المنظر من الطائرة قرى الصحراء، وغير بعيد منها مجرى واد كبير جاف ليس في مجراه إلا رمل أبيض.

وبعده أبصرنا قرية أخرى من الطين ولكن بعض بيوتها مسقفة من الصفيح وقد أخذت الطائرة بالتدنى تمهيدًا لنزولها إلى الأرض فبدت الأشجار أكبر حجمًا وبدا منظر غريب وهو أن كثيرًا من الأشجار قد اديرت حولها أحواش تبين أنها في الغالب يكون داخلها كوخ أو بيت ريفي صغير. ثم أبصرنا واديًا واسعًا جافًا ولكن منظره يدل على انه إذا جرى يجري بقوة وأنه يمتلئ بالمياه.

وكثرت مناظر البيوت الطينية التي تشبه البيوت الصحراوية القديمة عندنا، ثم هبطت الطائرة.

في مطار كانو:

وذلك لكي تنتظر قليلا ثم تواصل مسيرتها أو على الأدق طيرانها إلى مدينة (صوكوتو).

بدا لنا (مطار كانو) جيد البناء منسقًا غير أنه ليس بالواسع جدًا بالنسبة إلى أنه مطار دولي تنزل فيه طائرات عدد من الشركات العالمية من بينها طائرات عربية للمملكة ومصر والسودان ولبنان.

وفي ركن منه طائرات صغيرة ومتوسطة وطائرات تدريب.

وكان الوصول إلى مطار (كانو) بعد مضي نصف ساعة على القيام من مطار كدونا. ولم توقف الطائرة محركاتها لضيق الوقت الذي ستقضيه هنا.

إلى صوكوتو دار الخلافة القديمة:

قامت الطائرة بعد أن أمضت حوالي ٢٥ دقيقة في مطار كانو وذلك في الحادية عشرة إلا ربعًا قبل الظهر.

وعندما استوت في الجو أخذ منظر القرى التي لا خضرة حولها هو الغالب حتى ليشعر المرء اذا نظر إليها من الطائرة أنه ليس في إفريقية الخضراء.

ولكن يزول عجبه إذا تذكر أن هذه المنطقة الشمالية من نيجيريا تقع على حدود الصحراء فهي شبيهة بالصحراوية ولا تبعد جمهورية النيجر المشهورة بصحرائها إلا حوالي مائة كيلو متر من مدينة كانو. وهي من (صوكوتو) أقل من ذلك.

على أن عدم الخضرة حول القرى يؤكد لنا أن أهل البلاد يعتمدون في زراعتهم على المطر فليس لديهم توسع في استعمال الالآت الرافعة للمياه ولا في شق القنوات الكبيرة المتعددة كما كثر منظر الأحواش التي فيها بيوت منفرده يكون أحدها وأحيانًا كلها من الأكواخ الإفريقية الأصلية الهرمية الشكل.

كما تكرر منظر الوديان الجافة التي في مجاريها الرمل الأبيض.

ثم ارتفعت الطائرة وأصبح منظر الأرض منها منظر الصحراوي الجاف

وبعد الطيران برهة أخذنا نبصرمساكن وبيوتًا شبه متصلة وكلها محاطة بالأحواش من أغصان الشجر وهي كثيرة ليس حولها خضرة ماعدا بعض الأشجار الخضراء التي لا نعرفها من ارتفاع الطائرة الشديد.

ووصلنا إلى أرض شبه رملية حمراء حسبما ظهرت من الطائرة إلى جانب مجموعة غريبة جدًا من الأحواش إذ لا يوجد بيت بدون حوش ويظهر واضحًا من الطائرة أن ذلك الحوش من أغصان الأشجار وأما البيوت التي في هذه الأحواش فإنها مختلطة مابين أكواخ من القش وبيوت طينية تشبه بيوت الطين القديمة عندنا.

ويلاحظ أن أكثر هذه الأحواش لم تراع في إقامتها الناحية الفنية فبعض حوائطها مائلة وبعض زواياها غير حادة ويمكن القول أنها تدار ربما بأيدي أهلها من غير المدربين على العمل الفني في هذه الأمور بل كيفما اتفق.

إلا أن الفرق بين هذه المناظر والتي سبقتها أنك قد تجد في بعض الأحيان خضرة قليلة قد توحي بالزراعة أو بما يقرب من أن يكون زراعة كأشجار خضر غرست للظل مثلاً. وهو إلى ذلك قليل جداً.

في مطار صوكوتو:

لا أدري لماذا يخالجني شعور عظيم بالإبتهاج والاغتباط عندما أصل إلى مدينة تاريخية أو مدينة كانت مركزاً لحركات تاريخية قديمة.

وربما كان هذا هو شعور كثير من الناس غيري ولكن (صوكوتو) هذه ذات تاريخ مجيد في نشر الدعوة الإسلامية الصحيحة النقية أو التي هي أقرب من غيرها إلى النقاء في هذا الجزء من إفريقية الذي اختلطت فيه الدعوة الإسلامية بالتصوف ثم بأفكار وأعمال وثنية كانت موجودة عند أهل البلاد قبل اعتناقهم الدين الإسلامي. فجاء الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله وسعى إلى تصحيح الدعوة الإسلامية، ومحاربة البدع والخرافات. وإبعاد الشوائب عن الدين الإسلامي الحنيف. واتخذ هذه المدينة قاعدة لحكمه.

عندما حطت الطائرة في المطار بعد(٣٧) دقيقة من الطيران ما بين مدينة كانو ومدينة (صوكوتو) كانت الساعة هي الحادية عشرة والدقيقة السابعة عشرة قبل الظهر.

وكانت منطقة المدينة تبدو من الطائرة أكثر جفافاً من المدن التي زرناها ما عدا مناطق محدودة في ضواحي المدينة وبعض القرى البعيدة فكانت هناك أشجار خضراء.

غير أن أهم مظهر من مظاهر الجفاف هو عدم وجود الرطوبة، وبالتالي الشعور بالهواء الجاف وكأنه الهواء الذي يقرب من أن يكون سمومًا.

ورأيت قرب ساحة وقوف الطائرة منظرًا غريبًا إذ هو عدة سيارات واقفة على هيئة موكب وعدد من الجنود حولها. وجمهور غفير من الناس واقفين بدون نظام وطابور آخر من الناس قد صفوا بنظام.

ولم نستطع تعليل ذلك إلاّ عندما نزلنا من الطائرة فوجدنا قريبًا من سلمها عددًا من الإخوان الذين إسرعوا يعانقوننا ويخبروننا أن أحد الإخوان من بيت الشيخ أبي بكر جومي هتف بهم أن يستقبلونا ثم سارعوا وقدمونا إلى رجل ذي مظهر معتاد غير أن اعتزازه بشخصيته يبدو كبيرًا والقوم يعظمونه ويجلونه وقالوا: هذا هو نائب الحاكم بل حاكم (صوكوتو) الفعلي لأن الحاكم غائب عن البلاد ونائبه هذا سيسافر لمدة يومين وسلمنا عليه واسمه (الحاج أبو بكر نداما) فسلم بلطف وسألنا عن الميدان الذي نعمل فيه فأخبرناه أنه الثقافة الإسلامية فقال للذين معنا ولم نكن قد عرفناهم بعد: أرجو أن أقابلهم بعد عودتي من السفر بل ضرب موعدًا محددًا في يوم الجمعة.

ثم قدمونا إلى رجل آخر ذي مركز مهم هو (شيخ عبدالله بايرو) رئيس مجلس النواب في ولاية (صوكوتو) وهو أيضًا على وشك السفر وهو يتكلم العربية بشكل كافٍ وقال لنا: إنه تعلم ذلك في السودان.

وأما نائب الحاكم فإنني لم أره يعرف من العربية شيئًا مجزيًا.

وعرفنا بعد ذلك أن السيارات الموجودة قريباً من الطائرة والجنود المصففين هم من أجل توديع نائب الحاكم.

كما عرفنا أن الصف الطويل هم الركاب المغادرون على هذه الطائرة نفسها التي نحن قادمون عليها، وقد صفوهم استعداداً للركوب قبل قدوم الطائرة لأنها لا تطفئ محركاتها بل تنزل الركاب وتحمل ركاباً غيرهم في وقت قصير.

ولبثنا مع نائب الحكم ورئيس مجلس النواب في الولاية واقفين في الشمس لمدة يسيرة حتى سارا إلى الطائرة بعد أن ودعانا.

وهنا سألت إخواني الذي خرجوا لاستقبالنا عن أسمائهم؟ فأجاب أحدهم: أنا محمد بابا غوساو رئيس قسم الدراسات الإسلامية في كلية التربية بصوكوتو.

وقال الآخر: إنا عبد الغني دانوتي وكلاهما يلبس الملابس الوطنية المخففة التي هي قميص واسع الكمين عريض يضرب إلى ا لركبة تحته سروال طويل من القماش نفسه أما الثالث فإنه يلبس لباساً فضفاضاً مكوماً وعلى رأسه عمامة ضخمة قد أدار بعضها حول حنكه مما يدل على أنه يعتبر من أهل العلم أو مدرسي الدين أو أنه من إحدى الأسر المحافظة العريقة في ذلك وقد تبين انه من القسم الأول أذ قال: أنا (السيد الطاهر إبراهيم أبو بكر) مدير معهد العلوم القرآنية.

بعد أن انزل العمال أمتعة الركاب تسابق إخواننا على حملنا كل يريد أن يكون ذلك بسيارته وأخيراً اقتسمونا، فركبت أنا بسيارة الأخ عبد

الغني دانوتي وركب معي الشيخ الطاهر إبراهيم وركب زميلي الشيخ عبد العزيز الربيعان مع الشيخ (محمد بابا غوساو).

وكانت سيارة الأخ عبد الغني جديدة مكيفة الهواء.

وطلبنا منهم أن يتجهوا بنا إلى فندق (صوكوتو) وقد كنا رأينا اسمه في فندق حمدالله في كدونا من ضمن الفنادق التي يتعاون معها فطلبنا من المسئولة في الإدارة أن تحجز لنا فيه غرفتين فقالت: إنه يمكنكم أن تطلبوا من عاملة الهاتف أن تصلكم بالفندق في صوكوتو وتدفعوا نيرة وربعًا عن كل دقيقة فتركنا ذلك.

وتبلغ المسافة بين المطار وبين قلب المدينة ثمانية عشر كيلاً.

وقد أخبرونا أن سبب وقوف الناس قريباً من الطائرة هو كون المطار هذا جديداً ولا يزال العمل جاريًا في مرافقه وفي أبنيته.

سرنا على خط أسفلتي جيد مع أرض كالأرض العربية الخصبة أو قل كأنها الريف السوري الصحراوي في فصل الصيف ففيها أشجار صحراوية ومساحات من الخلاء التي ليس فيها أشجار ولا حشائش نامية ومن أول الأدلة على أننا خرجنا من الدائرة الاستوائية وجود الحمار فهو هنا موجود بعدد ليس بالقليل.

وأما البيوت التي تراها أول ما تترك المطار إلى المدينة فهي بيوت من طين بسقوف من صفيح لا تشك في أن هذه السقوف حديثة. وتوجد بعض الأكواخ في داخل أحواش كثيراً ما تكون عدة أكواخ داخل الحوش سألت عنها الإخوة المرافقين فقالوا: إنها تكون في الغالب للرجل مع زوجاته.

ثم دخلنا في شبه غابة من أشجار النيم الخضراء التي حفت بالطريق كله من يساره ويمينه، وبعضها يتجاوز حافة الطريق إلى ما بعد ذلك أي تكون هذه الأشجار مغروسة على الطريق وعلى ما خلفه من أرض.

هذه صوكوتو :

قابلتنا المدينة بشارع جميل مزدوج الاتجاه فيه جزيرة خضراء قد غرسوا فيها الزهور ورووها بالماء.

ثم تكاثرت أشجار النيم في جانبي الشارع وعلى مسافات بعيدة متصلة.

وكان الوقت كلما تقدم في الظهيرة أظهر لنا قرب الشبه بين هذه البلاد وبين بلادنا حتى شبه أن يكون هناك قائلة مثل ما هو عندنا في أول فصل الصيف.

ونزلنا في فندق (صوكوتو) بعد أن دفعنا الأجرة مقدمة ومعها مبلغ من المال بمثابة التأمين ولا أدري على ماذا يكون؟ أعلى ما قد نتناوله من طعام أو شراب؟ أم على ما قد نفسده من أثاث الفندق ورياشه كما يكونون قد افترضوه؟

وقد كان معنا إخواننا فلم يبد عليهم أي استنكار فضلاً عن الاستهجان لهذه العادة الرذيلة التي تدل على عدم الثقة بالنزيل وهي عادة قبض الأجرة مقدمة، وقبض التأمين معها.

ولما رأينا الغرف وجدناها لا تساوي ربع غرف فندق حمدالله في

كادونا فهي هنا ليس فيها سجاد أصلاً بل هي بلاد أقرع وكل الفندق ليس فيه شيء من الفراش بخلاف فندق كادونا الذي هو مفروش كله من المدخل إلى آخر طابق حتى الدرج والأبهاء الداخلية ومع ذلك فهذا الفندق أغلى فهو بـ ٣٥ نيرة وخدمة ١٠٪ بالمائة.

والأدهى من ذلك الأسعار فقد طلبنا فنجانًا من الشاى فجاؤا به بعد ساعتين وبعد الحاح وتعقيب وكانت قيمته للشخص الواحد نيرة واحدة آي: دولاران بصرف الفندق ودولار وربع بصرف السوق الحرة.

ونزلنا نتجول في الفندق بعد الغرف المكيفة الهواء وبعد أن أمضينا فيها بعض الوقت فإذا بنا نحس بالسموم لأول مرة في إفريقية في هذه الرحلة كلها.

وكان الفندق مثل غيره من الأماكن والشوارع الحديثة في هذه المدينة غارقًا في أشجار (النيم) الخضرة وهي أشجار غير مثمرة كما قدمت وقد زرعوها في فناء الفندق الخارجي بكثافة حتى صار ليس فيه من الأشجار غيرها وهي تطلق من أزهارها رائحة عطرية لا يرتاح إليها كل الناس لإنها رائحة خاصة.

وأفظع ما قابلنا في هذا الفندق أننا وجدنا الماء عنه مقطوعًا وأنهم جاؤا باسطال (جمع سطل) وهو وعاء نقل الماء باليد ووضعوا في كل غرفة واحدًا مليئًا بالماء وكنت أظن أن هذا انقطاع مؤقت كما يحدث في كل البلدان غير أنه دام إلى الليل فوجدنا حرجًا ومشقة وأصبحت المحلات العامة في الفندق تطلق رائحة كريهة ولما سألتهم عن السبب في انقطاع المياه قالوا: أنه (الماطور) الذي يرفع المياه متعطل وأنهم لن

يلبثوا حتى يصلحوه ولكفنا بقينا طيلة يومين دون ماء وخرجنا منه وهو كذلك ومع ذلك أخذوا الأجرة كاملة وإذا كان هناك نقص أو انقطاع في الماء كما هو حاصل فإن هناك شيئًا آخر ليس فيه نقص ولم ينقطع إلا في الليل، ألا وهو البعوض فكان موجودًا يتطاير من خزانة الملابس، ولم ينقطع إلا عندما جاء أحد العاملين في الفندق وأخذ يطرق الغرف ويرشها بمبيد الحشرات.

جولة في مدينة صُوْكُتو:

اسمها كما ينطقون بها الآن هو (صُوْكُتَو) بضم الصاد والكاف. وقد اعطاني الشيخ الجنيد الأتي ذكره وهو وزير أمير المؤمنين خليفة الشيخ (عثمان دان فودي) نسخة من كتاب له عنوانه ضبط الملتقطات في أحوال الشيخ عثمان دان فودي فيها شعر تنطق فيه (صوكتو) قال: قال يحيي بن عبدالقادر في مفدح الخليفة الذي قبل الحالى :

ألا يا أهل (صوكتو) بل ألا يا	أهالي الأرض فزتم بالإمام
جدير بالخلافة مستحق	لها أهل ومَنْ مثل الإمام؟
سليم القلب طود الحلم سهل	شفوق للرعية خير حامي

وحاول الدكتور الوزير أن يثبت في أول كتابه أن الشيخ عثمان قد بشر بميلاده قبل ولادته، وشحن الكتاب. بأخبار غير صحيحة عن أصل الفلاتيين الذين منهم الشيخ عثمان. وقال: ولد الشيخ عثمان في أوآخر صفر عام ١١٦٨هـ/ وذكر أن مبدأ دعوته كان في عام١١٨٨هـ.

والكتاب مفيد فيه وقائع تاريخية مختصرة إلا إن تناوله للأشياء وحكمه عليها متأثر بنشأته ولذلك يعتبر الكتاب دليلاً جيداً على الحالة العقلية والتفكير في هذه البلاد في تلك الحقبة.

وصوكتو هي مدينة الشيخ عثمان ومقر حكومته. اتخذها موطناً له بعد هجرته من بلاد غوبر ولازمها حتى أيامه الأخيرة. وظلت قاعدة حكومته وخلفائه حتى الاحتلال البريطاني.

أما مقاطعة صوكوتو فإنها تشمل بلاد زنفرة التي كانت إحدى الممالك الهوساوية القديمة والتي كانت عاصمتها كياوى ومنها انتقلت العاصمة إلى صوكوتو ولما احتل الانجليز بلاد الشمال فقدت صوكوتو نفوذها وضاع منها مجدها وبهاؤها إلا في صفحات التاريخ ولا يزال سلطانها يحمل لقب أمير المؤمنين ويتمتع بالشرف الروحي التقليدي بين أمراء الشمال كما تقدم وأضاف إلى شرف هذا الأمير كون رئيس وزراء شمال نيجيريا من اهل بيته.

وكانت الجولة في صوكتو جولة مهمة بالنسبة إليّ انتظرتها على مضض لأن رصيداً من المعلومات التاريخية التي حصلت عليها بالقراءة والسماع كان يحدوني إلى ذلك. وربما يكفي منه كونها عاصمة الخلافة الإسلامية في هذه البلاد.

فكانت الوقفة الأولى في هذه الجولة عند (معهد العلوم القرآنية) كما اسماه صاحبه الشيخ (السيد الطاهر إبراهيم) وهو شيخ يعرف العربية جيداً كان قد تعلمها في دار الحديث بمكة المكرمة ولذلك يتكلم في بعض الأحيان باللهجة الحجازية. وكان أحد مصاحبينا في هذه الجولة وكان

الثاني هو الأخ عبدالغني دانوتي والثالث هو الأخ الشاب محمد بشير محمد وهو الذي يسوق السيارة ويعرف قدراً جيداً من العربية فأول ما شعرنا به عندما خرجنا من الفندق هي بقايا سموم الظهيرة رغم أن الساعة الأن حوالي الخامسة عصراً. وكان أول ما رأيناه رجلاً يسوق حماراً وأول شجر سرنا تحته أشجار النيم الكثيرة في هذه البلاد وسألت أحدهم عن الفائدة من غرس هذه الأشجار بكثافة هائلة وعما إذا كانت تثمر؟ فأجاب: إن الذين غرسوها هم الانكليز وأنها لا تثمر مطلقاً لهذا السبب.

وكان هذا تعليلاً قصد منه الدعابة. وإن كانت الحقيقة الثانية أن أول من نشر زراعتها هم الانكليز يريدون بذلك أن تكون أشجاراً ذات ظل غير أنه من الممكن في اعتقادي غرس أشجار أكثر منها ظلاً وأفضل عائدة مثل أشجار العمبة (المانقو) بل مثل النخيل التي اعتقد أنها لو لقيت العناية الكاملة لكان منها شيء يثمر ثمرة مجزية لان الجو هنا يساعد على ذلك وهو جو ذو فصول تقرب من أن تكون أربعة – لأنه شبه صحراوي كم قدمت.

ووصلنا المعهد المذكور – فوجدنا اسمه أكبر من حقيقته فليس فيه فصول دراسية منتظمة وإنما وجدنا جماعة من الناس على حُصر في حوشه بعضهم نائم وبعضهم جالس على الأرض وقد مد رجليه. ولم نجد فيه طلاباً، وربما كان ذلك بسبب العطلة التي تسبق الصيفية.

وأول ما لفت نظرنا أنهم كانوا يديرون جهازاً للتسجيل تنبعث منه قراءة بصوت الشيخ محمود الحصري وبصوت مرتفع جداً لم يستطع

أحدنا أن يسمع صوت الآخر بسببه.

وذلك إظهاراً منهم لطبيعة المعهد مع أن المسجل والشريط الذي سجلت عليه التلاوة يمكن أن يقتنيهما أي شخص ولايدلان على جهد كبير في هذا الأمر.

وكان فناء البناء قد فرش برمل أحمر قد رميت فيه بعض ا لحصر الممزقة. وأرانا السيد الطاهر غرفة فصل دراسي جيد، وغرفة بجانبها بداخلها حمام قال إن الوعاظ الذين يأتون إلينا ينزلون فيها لأنه لا يصح أو لا يستطيعون أن ينزلوا في فندق.

ثم أرانا مسجداً صغيراً وخرج بنا بعد ذلك إلى فناء مكشوف قال انه أرض اعطتهم أياها الحكومة وتكلم بهذه المناسبة على الجهات المسئولة في السعودية وقال إنها تساعد المسلمين على الورق فقد كتبت وكتبت ولم يأت إليّ مساعدة رغم أنهم قد أرسلوا إليّ استمارات ملأتها واعدتها وكان يقول ذلك وأنا استمع إليه ولا اتمكن من أن اجيبه بالجواب الحاسم حتى أطلع على هذا الذى سماه معهداً وأعرف ما اذا كان يستحق المساعدة أم لا لأنني أنا أحمل مساعدة أستطيع إذا اقتنعت واقتنع زميلي باستحقاقه إياها أن نساعده بها.

وكان مفصولاً بين أرضه وبين أرض أخرى فيها بناء جديد لم يكتمل بجدار من الاسلاك الخفيفة خلفه جماعة من الطوارق ثلاثة ومنهم امرأة وطفل، ما أن رأوا ملابسنا العربية حتى سارعوا يقومون للحديث معنا من خلف هذا الحاجز الذي لا يمنع من ذلك بل هو قصير.

ومن الطريف أن الرجل عندما أراد أن يكلمنا أسرع يتحسس بيده اللثام الذي على فمه ليتأكد مما إذا كان قد غطى كل فمه قبل أن يبدأ معنا الحديث لأن التقاليد المرعية عندهم تقضى على الرجل منهم ألا يكلم من يحترمهم إلاّ وقد غطى فمه كله بلثام سميك وكان يحدثنا وهو من لثامه حين يتحدث كالذي سد فمه بخرقة وهو يتكلم.

وأما المرأة التي لا أدري أهي زوجتة أو زوجة الآخر فانها كانت سافرة تمامًا وليس على وجهها أي حجاب. ولا يبدو أنها كانت قد تعودت التحجب لأننا لم نرها بان على وجهها أي خجل أو اضطراب وهي تنظر إلينا من قرب وتشعر أننا ننظر إليها لغرابة منظر الرجال الذين معها.

وكان منظرهم جميعًا وهم من الطوارق أهل النيجر الذين جاؤا إلى هذه البلاد بسبب الضائقة الاقتصادية التي ألمت ببلادهم من الجدب المتواصل.

وقال إخوننا المرافقون: إنهم حراس لهذا البناء، وقال الرجل الذى كلمنا: أرجو أن تبحثوا لي عن عمل أعيش منه فأنا متعطل.فأعطيتهم شيئًا قليلا من النقود بمثابة هدية للطفل الذي معهم يستطيعون أن يشتروا به لحمًا وما شابهه.

ومما يستحق التنويه به أن الرجل الذي كلمنا هو طالب علم ولذلك يعرف شيئًا من العربية تعلمه تعلما، وإلا فإن لغتهم الأصلية هو لغة الطوارق إحدى اللغات البربرية.

وأرانا الشيخ الطاهر بيته في داخل المعهد وقال إن له أربع زوجات وأكثر من عشرين ولداً هكذا قال أكثر من عشرين وقال لنا إن الدراسة في المعهد سبع سنوات ولكننا لم نجد فصولاً يمكن أن تستوعب ذلك.

لذلك قررنا فيما بيننا أنه لا يستحق المساعدة، وكان معنى ذلك أن يستمر الشيخ الطاهر في حملته على الجهات المسئولة عن الدعوة في المملكة وأن يكرر قوله في المستقبل أنها تساعد المسلمين على الورق مع أنه لو كان سألنا عما صرفناه نحن في رحلتنا هذه من مساعدة لغير رأيه ولعرف أن المساعدات لا تصرف جزافاً وإنما تصرف بعد اجتهاد واقتناع من المسئولين عنها.

واستأنفنا الجولة في مدينة (صوكوتو) مع شوارع غير معتنى بها وفي بعضها أكوام من القمائم بعضها قد أحرق وبقى رماده.

ولاحظنا وجود ثروة حيوانية فيها منها ماعز كبير أحمر أكبر من الماعز الموجود عندنا.

وعندما مررنا بأشخاص يبيعون فاكهة على الطريق وقفنا عندهم نسأل عن ذلك فوجدناها غالية جداً، ومن ذلك ثمار من العمبة (المانقو) الأربع بنيرة واحدةمع أنها ثمار صغيرة، وهناك موز أرجواني اللون غريب لم أره بهذا اللون في أي مكان آخر من العالم. قالوا: إن الأصابع الخمسة منه بنيرة. والموز المعتاد بالحجم المتوسط كل ستة بنيرة. والبرتقال المقشر الثمان منه بنيرة وقد اشترى مرافقونا شيئًا من البرتقال المقشر وأخذوا يأكلون منه ولم استطع ذلك لأنه مقشر معرض للغبار وغيره. ولا أعرف شيئًا عن نظافة البائع الذي قشره ومسه بيديه.

في وسط صوكوتو :

مررنا بحي قديم قالوا إنه وسط البلدة بيوته من الطين الذي يشبه الطين في بلادنا الا انه هنا غير منسجم الحيطان بمعنى أن الناحية الفنية أو الهندسية غير مراعاة فيه فلا تراهم يحرصون على أن يكون الجدار مستقيماً ولا أن يكون أضلاع المربع متساوية حتى الحيطان نفسها تجد جزءاً منها غليظاً قد كوم فيه الطين تكويماً وجزءاً آخر أقل سماكة منه.

وهذه كانت الظاهرة الموجودة في بيوت القرى والأحياء غير المعتنى ببيوتها في بلادنا قبل التقدم العمراني الأخير الذي قضى على البناء بالطين قضاء مبرماً وأبدل منه البناء بالاسمنت المسلح أو بلبن الاسمنت.

وسقوف هذه المنازل أو أكثرها مسطحة لا شك في أنها مسقفة بالخشب مثلما كانت البيوت الطينية القديمة عندنا.

غير أن بعض هذه البيوت الطينية في هذه المدينة قد سقفت بالزنك المسنم لأنه يقى جدران الطين من أن يصيبها المطر بطبيعة الحال.

ومما يميز بعض هذه البيوت الطينية أن أحواشها من القش أو على الأدق من أغصان الشجر اليابس هذه صورة استمتعنا جداً بمشاهدتها لأنها أعادت إلى عيوننا أشياء كنا نراها فغابت عنها فيما غاب عنها من مناظر إلا أنها لا تزال باقية في أذهاننا.

وشيء آخر اعادنا إلى الزمن البعيد في بلادنا ألا وهو:

سرح البقر:

كان الناس في بلادنا يرسلون المواشي التي تكون في بيوتهم في المدن والقرى الكبيرة من البقر والغنم والماعز مع راع فيذهب بها إلى المرعى في الصباح فيسيمها الرعي ثم يعود بها إليهم في المساء ويسمون تلك الماشية سرحًا لأنها تسرح أي تسير أول النهار من عندهم.

وذلك أنه قابلنا قطيع ضخم طويل من أبقار ضخمة عظيمة هي في عظمها بالنسبة إلى أبقارنا كالماعز الحمر عندهم بالنسبة إلى الماعز عندنا.

وهي من فصيلة أصيلة في هذه البلاد فليست من الأبقار الهولندية أو الاسكتلندية المشهورة بخصائصها الجسدية التي تميزها عن غيرها ولكنها أبقار ضخمة طويلة.

وقد أخذت وهي تتهادى في الطريق وبعضها يطوح برأسه يمينًا وشمالاً تسد ا لطريق على السيارات وكأنها تتحداها في هذا العصر الذي سمي بعصر البخار ثم بعصر السيارة والطائرة واعجبني منظرها بل اغتبطت به لأنني أحب أن تكون بلاد إخواني المسلمين في هذا البلاد منتجة للحيوانات النافعة مثل هذه غير أن استمرار تدفق هذا القطيع من الأبقار ازعجني فسألنا عنها فقالوا: إن هذه الأبقار عائدة من المرعى إلى أربابها وأنها من الكثرة على ما رأيته.

وأن هناك قطعانًا أخرى مثلها وهذه كلها لأهل مدينة (صوكوتو) وأما أهل الأرياف المشهورون بالأبقار ا لكثيرة الكبيرة فإن أعدادها عندهم

أكثر والعناية بها أعظم بل هي ماشيتهم الرئيسية وان كانت هناك في المنطقة، أنواع أخرى من الماشية النافعة وعلى رأسها الماعز والشياه ثم الابل.

وسرح الغنم:

وتنفسنا الصعداء حين استطعنا أن نفلت من البقر هذه التي يظهر أنها كانت قد ألفت منظر السيارات وأصواتها فأصبحت لا تفسح لها الطريق.

وتجاوزناها إلى شارع آخر قابلتنا فيه رعية من الغنم من الشياه والخراف الكبيرة الحجم جداً التي بعضها لونه لون عجيب بحيث يكون النصف من الواحدة منها أسود والنصف الآخر أبيض كأنما خط ذلك بقلم من دون أن يطغى أحد اللونين على الآخر.

ومررنا بشارع في هذه المنطقة فيه مجرى ماء أردت أن أتأكد منه فسألت الذين معي عما إذا كان من المياه المستعملة؟ فما كان من الشيخ الطاهر إلا أن سارع بقوله: هذا ذنب الحكومة: فقلت له: يا أخي انني هنا لست قاضياً أقول من المذنب لأن طبيعة وضعي هي ذلك وانما أردت أن أعرف هذا الأمر.

وقد لاحظت أنه مثل بعض الأشخاص الذين لا يحبون أن يسئلوا أوقد يجيبون إجابات غير مباشرة ولا مناسبة من ذلك قوله وقد سألته عن بعض الأشخاص من طلبة العلم: أنا لا أعرف إلا الدعاة لله أو قال: إلا أهل ا لدعوة إلى الله.

ووصلنا الى شارع واسع اسمه (اليلى رود) اي: طريق إليلي وهي بلدة في شرق نيجيريا سمي هذا الشارع على اسمها.

نهر ريما:

من شارع (اليلي)ولاينبغي أن نغلط فنقول (ليلي) ليوافق ذلك اسم (ريما) اتجهنا يمينا مع شارع واسع أيضًا، ولكنه غير معتنى به، فهو قذر والزفت فيه قليل، ويوجد في جهات منه قمائم ومياه متسربة.

وهو يفضي إلى واد فيه نهر هو مقصدنا من الذهاب معه.

توجد زراعة محدودة في هذا الوادي الذي يجري فيه النهر لا بأس بها من حيث مقدار المياه التي تتدفق فيه ويسمي نهر (ريما).

ولما سألت مرافقي ويعرف العربية منهم اثنان عن بعض الأشياء أخذا يضحكان من ذلك أنني لمحت رملاً على البعد يشبه الرمل في بلادنا في القصيم، فسألتهم عنه أهو رمل أم طين؟ فأجابوا: إنه رمل.

فسألتهم عما إذا كان بإمكاننا أن نصل إليه ونقف حوله فأخذوا يضحكون ضحكًا بين الاستهزاء والتعجب أوفيه منهما معًا ما يكفي لاسكات السائل ولكنني لم اسكت وكنت اتعمد الحديث بالعربية لكي يشترك معنا في فهم مايدور من حديث زميلي الشيخ عبدالعزيز الربيعان لأنه لا يعرف الانجليزية ولولا ذلك لكلمت الأخ الثالث الذي يعرف الأنكليزية دون العربية (عبد الغني دانوتي) مع أنه هو يشاركهم الضحك والتعجب من فضول هؤلاء الأجانب. وربما كانوا يقولون بلغتهم في بعض الأحيان ما معناه: انظروا إلى عقليّة هذا الرجل الأبيض فهم يصنفوننا وأمثالنا من حيث اللون مع الغربيين وإن كانوا يحترموننا ويكرموننا لأننا من إخوانهم المسلمين جزاهم الله خيراً، وزاد أخوتنا على ما يرضيه قوة ومتانة إنه سيمع قريب.

عراة في النهر:

وقفنا قريبا جداً من النهر إلا أننا لم نكن ملاصقين له بسب وجود بعض الوحل القليل الناشئ عن تحريك الأقدام والدواب وإلا فإن ضفة النهر تقرب من أن تكون ذات رمل مبتلة من الماء.

ولما أقبلنا عليه رأينا جماعة متفرقين يغتسلون وهم عراة ولفت نظري أقرب واحد منهم كان عارياً تماماً كما ولدته أمه وهو يحادث جماعة منهم على جانب النهر وهم لا يغتسلون مثله فتقززت نفسي منهم. وقلت للشيخ الطاهر: أخبره وأنت شيخ يعتقد ما تقول بأن إبراز العورة هكذا حرام.

فكان أول رد فعل لقولي هذا هو أن ضحك منه أصحابي المرافقون الثلاثة وأبلغ أحدهم الشاب العريان به فضحك بملء فيه من سخافة هذا القول أو من طرافته لا أدري ولكن الأمر استدعى أيضاً ان يضحك أولئك الذين كانوا يحادثون الشاب العريان وهم قد لبسوا على عوراتهم المغلظة ما يسترها.

واستمر في عريه واستمر مع الآخرين في الحديث،وتركناهم وقد شبعوا ضحكا شاركهم فيه إخواني المرافقون ولذلك لم أقل شيئاً عندما رأيت أكثر من شخص وهم يغتسلون عراة في النهر لا يبالون بالناس والناس لا يبالون بهم.

وكان بعض الناس يغسلون سياراتهم على ضفة النهر الذي كان يسير سيراً واضحاً ورأيت أحدهم معه مقدار من ا لجزر يغسله في النهر من بقايا الطين ا لعالق به فرأيت المرافقين يشترون منه ويأكلون

واذا رأو فيه طيناً أو نحوه غسلوه بماء النهر مع أن ماء النهر كدر ليس صافياً ولا نظيفاً وهو هدف لالقاء بعض الفضلات فيه إلا أنه ماش ليس راكداً.

عودة إلى الجولة:

وعدنا إلى داخل المدينة بعد أن لبثنا هنيهة بجانب النهر الذي كانت جهته الشرقية وهو يقع إلى الشرق من المدينة ليس فيها مساكن وإنما فيها بعض الزرع بعده أراضٍ رملية حمراء وعادت رؤية بعض الأبقار السمينة بين البيوت ورؤية اناس جالسين في أسفل حيطان بيوتهم الطينية في هذه الساعة من الأصيل كما كان يوجد عندنا منذ عشرات السنين ولكنه انقرض الآن. ورأينا لبناً من الطين أي: قطعاً من الطين الرطب المتروك ليجف في الشمس حتى تبنى به البيوت الطينية.

ثم قابلنا قطيع من الأبقار الكبيرة الحجم الكثيرة العدد، وما انقضى آخرها حتى بدأ قطيع آخر وهو من الأبقار التي كانت سارحة إلى المرعى في الصباح وعائدة إلى بيوت أربابها كما سبق.

ومن الصور النادرة عندنا أو التي انقرضت الآن بل أصبحت نادرة في معظم البلاد العربية وقد شاهدناها هذا المساء طين مخمر وهو الطين الذي وضع فيه حوض به ماء يجعل فيه حتى يكون أفضل لخلطه وأسهل للبناء به بعد ذلك. وعدة بقرات مربوطة في موضع متسع يشبه الميدان، ومستنقع صغير من الماء الأخضر من طول لبثه، وكومة من السماد والنفايات عليها معزى تبحث عن شيئ تجده فيها،

وأكوام من التبن القديم، وصنبور ماء من المياه العامة حوله تربة متغيرة سوداء من كثرة الماء، وأكوام من الحطب المعد للبيع، وحجارة حمراء معدة لوضعها في أساس البيت عند البناء.

وهناك منظر يمكن رؤيته في بلاد أخرى وهي منظر امرأتين مكفوفتين يداهما على كتفي قائدة لهما وهما تسألان.

ومناظر افريقية أخرى بالدرجة الأولى منها منظر بائع لجلدة الرأس وقد أوقد بجانب موضع بيعه مصباحاً غازيا لأنه يعرف أن الليل مقبل وأنه يحتاج إليه في إبراز بضاعته، وبنات على وجوههن شرطات أي: علامات قد رسمت بالموسى تكون على وجوه بعض الأفارقة بمثابة علامةالقبيلة وكنا نراها في القديم كثيرة في الحجاز بين المهاجرين منهم، ورجال عليهم مثل هذه العلامات في وجوههم.

وبائعات الدخن والذرة، وجرة من الفخار مما كنا نسميه حِبًا بكسر الحاء وهي التي تعد لخزن السمن حمراء اللون.

ومهاف - جمع مهفة - وهي المروحة من ا لخوص التي كنا نستعملها قبل تعميم الكهرباء: ورجل طويل قد ركب حماراً قصير الأرجل وهو يحثه على المشي بتحريك رجليه فيزيدهما حركة على حركة.

وامرأة بائسة ترضع ولدها أمام الناس في السوق، وبائعة جرار أي: أوانٍ من ا لفخار وهو الطين المطبوخ - إن لم تكن تعرفه -.

ومنظر غير أصيل من افريقية الاستوائية، وهي منظر ثمار الأناناس المعروضة للبيع إلا أنها هنا رديئة بشكل ظاهر.

كل هذا رأيناه في هذه المدينة العريقة العجيبة الغريبة وكل هذا يجعلها تستحق أن تزار لو لم يكن في زيارتها إلا رؤية هذه الأشياء مع أن الأمر ليس كذلك فهي حافلة بما هو أكثر أهمية وأكبر خطراً منها.

وفي هذا السوق ويسمونه السوق القديم كانت هناك فاكهة وخضروات محدودة الأنواع منها ثمار من المانقو المبكر لأننا الآن في أول موسمه كما أخبرونا، بل ربما كنا في وقت أبكر من ذلك بالنسبة إلى نضجه، وبرتقال غير صافي القشر فتجد في قشره الخارجي ما يشبه الدرن أو الاصابة بشيئ ولكن ذلك لا يضره في الطعم فهو لابأس به وان لم يكن في جودة برتقال المغرب والبلاد العربية الأخرى.

وهناك (الكسافا) وهو عروق غليظة تنبت في الأرض كما تنبت البطاطس إلاّ أنها مستطيلة غليظة ويصنعون منها العصيدة وهو غذاء رئيسي مألوف لذوي الدخل المحدود من عامة الشعب ولكن حتى الأغنياء من المواطنين يحبونه ولا يتركون تناوله في بعض الأحيان، وهناك نوع شبيه به إلا أنه أبيض منه يسمى (يام) وهو أفخر من الكسافا يأكله الأغنياء.

وقد استمتعنا برؤية هذه السوق الشعبية القديمة، وكان أهم ما امتعنا منها عدا رؤية الأشياء القديمة التي ذكرتها أخلاق العامة من هذا الشعب المسلم مع الغريب فلم أرهم يقصدون مضايقته فضلاً عن إلحاق الأذى به ولم أرهم يستهزؤن به أو ينظرون إليه نظرات حاقدة.

فهم في هذه الناحية لاوجه للمقارنة بينهم وبين أهالي لاجوس الذين يتميزون بحدة الطبع وعدم مجاملة من يسمونهم البيض، ولا يلحق من

أهل هذه المناطق الشمالية بأهل لاجوس إلا قلة من المتعلمين من غير المتدينين وهم بالنسبة إلى مجموع السكان عدد قليل.

وقصدنا بسرعة إلى السوق الجديد على أمل أن نشاهده بعد أن شاهدنا السوق القديم وكنا في الحقيقة في سباق مع الشمس فلما وصلنا أخبرنا الشرطي المسئول على بابه بأنه مغلق الآن وأنه يمكن رؤيته غداً في الساعة التاسعة صباحا إذا أردنا ذلك.

وكان من أبرز معالم هذا السوق الجديد الظاهرة مسجد يسمى (مسجد السوق) ذو أربع منائر مربعة ظاهرة.

المشرع هو المحكمة:

مررنا ببناء ظاهر فقال الأخ محمد بشير وهو يشير إليه يريد أن يعرفنا به أنه (المشْرع) بفتح الميم واسكان الشين ولما استفسرت منه عن معنى ذلك قال إنه المكان الذي يفصل فيه بالشرع بين المتنازعين. فقلت له: أتقصد المحكمة فكأنما تذكر شيئًا كان غائبًا عن ذهنه، وقال: نعم، المحكمة.

وعدنا إلى الفندق عبر ضاحية جميلة يقع في ناحيتها وهي ضاحية منسقة الشوارع مشجرة إلا أن أكثر ما فيها أشجار النيم المزهرة التي تطلق زهورها رائحة عطرية نفاذة ليست بالمحببة إلى كل الناس، وقد اختلطت تلك الرائحة برائحة قمامات تحرق في عدة نواح من هذا الحي المنسق الجميل، ولا أدري لماذا لا يبعدونها عن المدينة ويحرقونها هناك.

المبالغة في تعظيم الحكام:

ربما كانت هذه البلاد النيجيرية من أكثر البلدان مبالغة في إكرام ذوي الشأن من الأمراء والحكام حتى العلماء كان الناس ولا يزالون يبالغون في إظهار إكرامهم إلى درجة تقرب من أن تكون سجوداً وتزيد على أن تكون ركوعًا لأنهم يهوون إلى الأرض عندما يرونهم، وأعظم من ذلك بطبيعة الحال حالهم مع الحكام.

والحديث عن ذلك يطول وربما تأتي مناسبة للحديث عنه.

وقد رأيت اليوم وأنا في الطريق إلى الفندق في هذه الأحياء الحديثة الغارقة في غابات من أشجار النيم شارعًا منسقًا جميلاً قل أن يوجد له نظير هنا، وهو مؤلف من اتجاهين بينهما جزيرة قد غرست فيها الزهور الملونة بشكل منسق وجميع أرصفته والافاريز التي تحيط بالجزيرة المذكور سليمة معتنى بها غاية العناية حتى أنهم وضعوا على جانبي الشارع بعد الرصيفين صفوفا من الحجارة المنسقة على هيئة زينة، وقد صبغوها باللونين الأخضر والأبيض.

ولما أبديت لهم اعجابي بهذا الشارع وهذه العناية الظاهرة أجابوا وهم يفخمون الأمر ويعظمونه أن هذا الشارع ذاهب إلى قصر الحاكم.

وأضاف أحدهم قائلاً أن المنطقة كلها تعتبر منطقة حكومية.

يوم الخميس: ١٤٠١/٥/٢٧هـ ٢ إبريل ١٩٨١م

لم يعد الماء إلى الفندق منذ انقطاعه عنه الذي كان قبل وصولنا ومع ذلك يأخذون منا ما معدله مائتا ريال أجرة يومية للغرفة ويأخذون إضافة إلى ذلك ما يسمونه تأميناً وهو مبلغ من المال مساو تقريباً لأجرة الغرفة يدفع مقدماً مع أجرة الغرفة.

وهو في الحقيقة لا يساوي شيئًا بالنسبة إلى فندق (حمدالله) في كدونا.

وبعد الإفطار طلبت فنجاناً من الشاي بهاتف الغرفة ولكنهم أبطأوا فعقبت على ذلك عدة مرات غير أن المسئول الملقب (روم سيرفس) أو عامل الغرف لم يجب فنزلت أسأل عن المسئول عن احضار الشاي فدلوني على المقهى ولكنني لم أجد فيه أحداً إلا فتاتين من جنوب شرقي آسيا جالستين على احدى الموائد ولما رأتاني وعليّ اللباس العربي أخذتا تنظران بقوة وتشير إحداهما إلى الأخرى بشكل مثير مما عجبت له وتبين السبب في ذلك حينما وقفت انتظر الموظف فأسرعتا إلى تسألان عما إذا كنت أريد مساعدة فقلت: شكراً ان كل ما أطلبه هو فنجان من الشاي كنت قد تقدمت لهم بصنعه ولكنهم أبطأوا عليّ، فقالتا هذه عادتهم في هذا الفندق إنهم لايحضرون الشيئ مثل هذا إلا بعد مدة طويلة إنه الكسل وعدم الرغبة في الإسراع ثم قالتا: إنهما من الفلبين

وهما تعملان في هذه المدينة (صوكوتو) وتبين لي سر اهتمامهما عندما قالت إحداهما أنهاسبق لها العمل في المملكة العربية السعودية وأظنهما تعملان في ميدان الطب.

ومن السذاجة أن أقول: إنهما ساعدتاني في الحصول على الشاي بسرعة ولكن قد يتبين أن الأمر فيه من الجد شيئ لأننا نريد اغتنام الوقت والخروج من الفندق بسرعة.

ومع ذلك رأيتهم كتبوا إن ثمن هذا الشاي نيرة كاملة.

ومما زاد استمتاعنا بجو هذه المدينة أنني نزلت أنا وزميلي الشيخ عبدالعزيز الربيعان قبل الافطار نتمشى في حديقة الفندق فوجدنا الجو بارداً منعشاً شبيهاً بالجو الصباحي في بلادنا في الصيف المعتدل الحرارة. وقد كنا جربناه ظهر أمس فوجدناه حاراً فيه بعض السموم.

وهذا يؤكد شبهه بجو بلادنا في الجزيرة العربية غير أن ألوان السكان فيه مخالفة لألواننا فهي السواد سواء كان سواداً حالكاً، أم سواداً خفيفاً كما هو ظاهر.

وهذا أثار في ذهني سؤالاً مهماً وهو أصل هؤلاء القوم السودانيين من جهة الموطن، فهم ليسوا كالزنوج ولا أهالي خط الاستواء، وإنما هم جنس من السودان اكتسب على مر العصور سمات وصفات ميزته عن

غيره، أو لنقل: إنهم مجموعة من الناس أكتسبت بسبب المساكنة – يعني المواطنة – والاختلاط تلك الصفات.

والذي اعتقده وكتبته في كتبي التي تطرقت لهذا الموضوع هو أنهم من سكان الصحراء الإفريقية القدماء ا لذين كانو فيها قبل أن تصبح صحراء، أي عندما كانت مطيرة خضراء وعندما أخذت بالتصحر أخذوا هم بالذهاب جنوبًا طلبًا للخصب والرعي إلى أن استقروا في هذه المنطقة التي هي الآن شبيهة بالصحراوية لولا موسم جيد للأمطار فيها ينمو فيه العشب وتزرع فيه الحبوب وتكثر فيه المواشي ولذلك يسميه بعضهم بالساحل مع أنه ليس بقربه بحر وإنما يريدون ساحل الصحراء الجديبة.

زيارة قبر الشيخ عثمان بن فودي:

لا يجوز شد الرحال إلى القبور لزيارتها كما ورد في الحديث الصحيح: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى».

فإذا كان الإنسان في بلد من البلاد لم يأت إليها بنية زيارة قبر فيها فإنه يجوز له بل يشرع أن يزور القبر فيها.

ولذلك عزمنا على زيارة قبر الشيخ عثمان بن فودي في هذه المدينة (صوكوتو) وزيارة قبره زيارة مشروعة فيها إلى ذلك معرفة ما صنعه القوم بقبر زعيمهم المجدد الذي كانت دعوته الإسلامية أتقى ا لدعوات التي ظهرت جنوب الصحراء. وأقربها إلى العقيدة السلفية الصحيحة.

خرجنا من الفندق للبحث عن سيارة أجرة، ولم يكن معنا أحد فلبثنا فترة في انتظار أن نتمكن من قطع الشارع ذي الاتجاهين دون جزيرة بينهما وهو الذي يقع عليه فندقنا ثم استأجرنا سيارة أجرة بنيرة واحدة إلى مكتب الخطوط الجوية النيجيرية وتبين لنا أنه قريب من الفندق فاشترينا تذكرتين.

وركبنا بنيرتين مع سائق سيارة أجرة إلى قبر الشيخ عثمان بن فودي في البلد القديم. ويسمونه هنا (هوباري).

فكان مما شاهدناه قبل الوصول إلى القبر رجل يقود بعيراً كأنه في بلادنا. وحصان جميل أشهب مربوط في أحد الميادين، وللقوم هنا عناية بالخيل ولا يزالون يستعملونها في المراسم وبعض المواكب الرسمية حتى الآن، وبقرات سمان عظام، وأحواش من الطين أي حوائط مبنية بالطين بناء رثا لا هو بالقوي ولا هو بالفني المنسق، وأحواش أخرى من السعف وأغصان الأشجار على بعض البيوت المنفردة.

هذا هو القبر:

وربما لا يكون هذا القول دقيقًا فهذا المكان كان مسكن الشيخ وكانت فيه مدرسته. وفيه قبور بعض المقربين إليه.

أنزلنا السائق وهو يشير إلى المكان. ولم نكد ننقده أجره حتى التف حولنا بسرعة جيش من الأطفال المستجدين (الشحاذين) ولا يمكن إعطاء أحد منهم أبدًا لأن عددهم كثير ويبين عليهم أنهم من المرابطين المعتادين على هذا الأمر في هذا المكان رغم أنني لم الاحظ عدداً يستحق الذكر من السائلين في غيره.

وهؤلاء الأطفال لا تظهر عليهم المسكنة ولارقة الحال، وإنما تظهر على بعضهم علامات الاهمال من الأهل، مثل أن تكون الثياب غير نظيفة أو أن يأتي أحدهم إلى هذا المكان وهو لم يغسل وجهه.

ودخلنا من مدخل غير فخم إلى ممشى مبلط ونحن نسير والشحاذون الأطفال الذين انضم إليهم بعض الشبان والفتيات يزيد عددهم وهم يتبعوننا فهم ككرة الثلج التي كلما تدحجرت على الثلج كبرت.

والظاهر أن بعض الزائرين قد عودوهم على هذا الأمر إذ كانوا شبه واثقين بأننا نحن الأجانب سنمنحهم شيئًا.

والواقع أننا نحن من الناحية المادية لا يضيرنا أن نعطيهم كلهم ولو كان عددهم كبيراً ما يصبون إلى مثله مثل عشرة كوبات بل خمسة كوبات، ولكنني أرى إن اعطاءهم ذلك أمر لا يجوز فهم في سن الطفولة والشباب ما بين بنين وبنات واعطاؤهم ذلك الشيء الزهيد أو حتى الكثير مما يقتل فيهم روح الطموح فضلاً عن إعاقتهم عن الدراسة والتحصيل مع أننا فهمنا أن هذه الأيام هي أيام عطلة للطلاب والطالبات عطلة تسبق الامتحان الذي تأتي بعده مباشرة العطلة الصيفية الطويلة.

وعندما انتهى بنا الممشى إلى باب حجرة أمرونا بأغلبيتهم بخلع احذيتنا اكراما للشيخ عثمان لأنهم هكذا يفعلون مع من يعظمونهم حتى في حياتهم فيخلعون نعالهم، ولا يجيز لهم عرفهم ان يقترب الواحد منهم من الرجل الكبير القدر وهو يلبس حذاء في رجله.

وفي هذا المكان وجدنا صفًا من الرجال الذين أغلبهم من كبار السن

وهم جالسون على الأرض يستجدون وقد وضع بعضهم أو أكثرهم أمامهم أواني فيها بعض الحبوب كالذرة أوالدخن انتظاراً لما يمكن أن يعطوه منها.

وفهمت من ذلك أن بعض الزائرين يتصدقون على هؤلاء (الشحاذين) باعطائهم بعض الحبوب الغذائية.

وكان هناك أعداد من الزائرين مثلنا يعترضهم المستجدون ويسألونهم مثلنا غير أنهم لا يلحفون عليهم في السؤال، ولا يتبعونهم بالكثرة التي يتبعوننا بها.

ومرد ذلك بلا شك الأمل في العطاء، والفضول في الاستطلاع على تصرفات هؤلاء الزائرين الذين يخالفون جمهرة الناس هنا بألوانهم.

هذا وكلما أمعنا في الدخول زاد عدد ا لشحاذين الذين يتبعوننا، وزاد عدد الذين نراهم منهم جالسين على الأرض وفي هؤلاء الجالسين نسبة من النساء المسنات، أما الشابات فإن عددهن قليل.

ومن الطريف في الأمر أن امرأة مسنة معها عصا وقد تركت صدرها عارياً تقريباً لأنها ليست من ذوات العورات أخذت تنهر الأطفال الذين يتبعوننا ففرحنا بذلك، وقلنا: إن هذا عجب من أمرها فهي تكون بهذا قد فطنت إلى ما لم يفطن له الرجال من تخليصنا ولكن ما أن أبعد الأطفال خوفًا من عصاها ولسانها حتى أسرعت تمد يدها إلينا وتستجدي وقد خيبنا ظنها كما خيبنا ظن من قبلها.

وحتى بعض الزمنى من الرجال أوالنساء هم موجودون وهم يستحقون الصدقة لأنهم من ذوي العاهات التي تمنع من الكسب غير

أن الصدقة عليهم ستوقعك في أمر مـربج من عشرات العيون الفاحصة والأيدي الممدودة إليك، والأقدام التي لا عمل لها إلا متابعتك.

وبهذه المناسبة عتبت على حكومة هذه البلاد لكونها لا تمنع من مثل هذه المظاهر بالقوة، وتقوم في الوقت نفسه بحملة من الاقناع عن طريق المذياع وجهاز التلفزة للمواطنين بألا يعطوا أحداً بهذه الطريقة التي هي في الحقيقة وسيلة من وسائل الكسب لأنك مهما اعطيت الشخص منهم لن يقنع بذلك ويذهب إلى حال سبيله فيأكل به ما يتبلغ به.

ووصلنا في سيرنا ببناء مستدير على هيئة غرفة كبيرة وكان شاب يعرف بعض الانكليزية قد تبعنا ولم نلق له بالا إلاّ أنه تبين بعد ذلك أنه مهم لنا لأنه لا توجد معلومات مكتوبة واضحة عما في داخل المكان لذلك لابد من شرح دليل عارف.

فقال ذلك الشاب: إن هذا المكان هو مدرسة الشيخ عثمان بن فودي.

وتركناه مع ممر طويل غير مفروش وغير ناعم وغير ممسوح من الغبار وشيء قليل من التراب ونحن قد خلعنا نعالنا.

وكان الممر مملوءًا بالجالسين الذين ينتظرون العطاء وبعضهم قد وضع قطعًا من النقود الصغيرة في أوانٍ أو على الأرض وهم بذلك يدعون الناس إلى منحهم بعض النقود الصغيرة مثلها.

ومررنا بمكان قال الدليل: إنه بيت الشيخ عثمان بن فودي، ولم ندخله وإنما قصد بنا الدليل مكانًا آخر هو (قبر الشيخ).

وهو داخل غرفة ليست بالكبيرة. مرفوع بمقدار قامة الرجل وعليه ستارة من القماش الأزرق كتب عليه بالعربية (هذا مقام القطب الرباني

المجدد الشيخ عثمان بن فودي رضى الله تعالى عنه)

وعلى جانب آخر من القبر كتبوا ﴿لا إله إلا الله محمد رسول الله﴾.

ورغم ضيق الغرفة فإنه كان فيها اناس جالسون يدعون ونساء أيضا خارج القبر وهم ينظرون إليه ويدعون.

وقد وجدنا قمرية وهي نوع من الحمام تقع على القبر وتطير منه غير مبالية بالناس، أو بضيق المكان.

وهذه الأمور أكثرها بدعي لا يجوز فعله في الشرع ومنها البناء على القبر ورفعه عن الأرض أكثر من الشبر. والتوجه بالدعاء إلى القبر متجهًا إلى غير القبلة.

وبعد أن سلمنا على الشيخ عثمان بن فودي السلام الشرعي وبعد الدعاء له بالمغفرة وجزيل الثواب، انتقلنا إلى مكان آخر فيه عدة قبور على هيئة أحواض واسعة محاط كل واحد منها بجدار من الجص لا يزيد ارتفاعه على شبر.

ونَوّه الدليل بقبر واحد منها قال: إنه لعائشة بنت عمر الكمو صاحب الشيخ عثمان، وبقبر ثانٍ قال: إنه قبر أمير الجيش علي جودي.

هذا وقد كان الزائرون غيرنا كثيرًا، ورأيت بعضهم يتصدق على هؤلاء المنتظرين مما يحملهم على الانتظار ويعودهم على الاستمرار في هذه المهنة المرذولة.

وكل الزوار الذين رأيتهم هم من أهل نيجيريا أو ما قرب منها أي: من الإفريقيين ولم أر من الأوروبيين أحدًا مع أن العادة أنهم يرتادون مثل هذه الأماكن للفرجة أو للدراسة.

وعندما انتهت الزيارة وعدنا من حيث أتينا كانت كتلة الأطفال من بنين وبنات لا تزال تتبعنا وبعض الرجال الجالسين لغرض الاستجداء بثيابهم الواسعة ينظرون إلينا بفضول مبطن بأمل.

وانتهت الزيارة، وانتهى الدليل من عمله، ووقفت أتأمل المكان والناس، وأولئك الأطفال ينظرون إلينا بفضول، وقد أصبح الذين يستجدون منهم قليلي العدد، وإنما كانوا ينظرون ويحملقون مما أعاد إلى ذاكرتي الأيام الأولى التي كان فيها الأوربيون والأمريكيون الأوائل يصلون إلى الجزيرة العربية فكان الأطفال يتبعونهم يتفرجون على هيئاتهم وألوانهم. وكان أفراد من الأطفال أو ممن كانوا قد اعتادوا الاستجداء والسؤال يتبعونهم أيضاً.

وكانت أية حركة منهم تعتبر عجيبة من العجائب وأذكر أنني شاهدت اثنين منهم جاءا إلى بلادنا وأنا طفل صغير فكان أطرف شيء سجلته أعين الفضوليين والمتطفلين لهم هي أن أحدهم أخرج من جيبه منديلاً من القماش فبصق فيه ومسح أنفه ثم أعاده إلى جيبه فلم يكن الناس في بوادي الجزيرة وحواضرها الشبيهة بالبوادي يعرفون هذا الأمر ولم يكونوا يرونه وإنما كان الرجل يجد في الأرض منديلاً كبيراً لا يستعمله أكثر من مرة، وأما المسح فإنه كان يكون باليد أو بطرف الكم أو طرف (الشماغ).

وتذكرت ذلك بالضبط عندما رأيت العيون الصغيرة والعيون الضيقة الفاحصة تلاحق كل حركاتنا وسكَتاتنا، وإذا سكت الجميع لحظة انبرى واحد منهم يقول (كرامة لله)،(كرامة في سبيل الله). فيتبعه آخرون يقولون مثل ذلك ويمدون أيديهم.

غير أننا والحق يقال خيبنا ظن الجميع إلاّ أن ذلك لم يمنعهم من مواصلة متابعتنا، وكأنهم لم يروا أحداً غيرنا يستحق المتابعة، وربما كان مرجع ذلك إلى ما لاحظوه من اهتمام متبادل بهم إذ كنت أقابل البسمة من أحدهم ببسمة، والنظرة بنظرات، وإن كانت الأهداف من ذلك مختلفات.

وكانت فيهم بنية صغيرة في حدود الثامنة أقل سواداً من غيرها مما جعلني اعتقد أنها من الفلانيين وليست من الهوساويين فأسألها عن ذلك فيسارع غيرها بالإجابة قبل أن تجيب هي: نعم إنها من فلاته.

وكان أهلها قد ضفروا شعرها القصير القليل ضفائر صغيرة جداً، وكحلوا عينيها بكحل أسود مما جعلهما تبدوان أكثر اتساعاً مع أنهما في الأصل واسعتان نوعاً ما، وأردت ان انفحها شيئاً على سبيل الهدية فلم استطع من كثرة الزحام.

والغريب في الأمر أن هذا الزحام وهذه المتابعة قد سرتني سروراً عظيماً لا لكوني أريد أن أقيده فيما أقيده من مشاهداتي، وإنما أحسست البراءة والطيبة في طباع هؤلاء الأطفال من أبناء المسلمين رغم أن المهنة التي جاؤا من أجلها مهنة الاستجداء غير شريفة فلم أر فيهم شيئاً من الطباع الشرسة، ولا أراهم يضمرون شراً لنا، بل إنني استمتعت بتجمهرهم عليّ لأنني بعيد العهد بأولادي فكان ذلك قد عوضني شيئاً مما فقدته من ذلك.

وكأنما أحسوا هم أنني لا أتضايق منهم فاستمروا خلفنا وكان بعض الرجال من المارة بل وبعض النساء ينهرونهم، ويبعدونهم عنا فلا يمتثلون.

وقد حاولت أن أمنعهم من متابعتنا بعد ذلك عندما خرجنا من القبر وصرنا نسير في حي قديم وكانوا لا يزالون يتبعوننا فطلبت منهم أن يجلسوا على الأرض جميعا فامتثلوا بسرور.

وبعد أن جلسوا سرت وتركتهم فاكتشفوا المزحة وأخذوا يضحكون وهم يتابعوننا وفي ذلك الحي بيوت من الطين قديمة أو هي على طراز قديم، وتحت عدد من جدران تلك البيوت جلس طائفة من الشيوخ والعجائز فرادى وجماعات يتحدثون وبعضهم قد مد رجليه كما كانت الصورة القديمة في بلادنا في القديم.

والغريب أن بعض النساء المتقدمات في السن من هؤلاء الجالسات لا يبالين بستر صدورهن ربما كان ذلك لشعورهن بأنهن لا يلفتن أنظار الرجال.

ومما يزيد هذا الحي عراقة في مظهر الأحياء القديمة أن أزقته التي سلكناها ليست مستقيمة بل هي متعرجة، وبعض حيطان البيوت القديمة منبعجة أي غير رشيقة مستوية.

مسجد الشيخ عثمان:

كنا نخترق الحي العجيب ولا تزال بقية من أبنائنا وأودّائنا الأطفال تصاحبنا وقد عرفت أن ذلك ليس مرجعه في هذه المرة الطمع لأنهم عرفوا أنه ليس فينا مطمع، وإنما مرده إلى الفضول ومعرفة ما نصنع.

وكنا نسير على هدى منارة عالية لمسجد جامع قريب من قبر الشيخ عثمان لا يفصل بينهما إلا جزء من هذا الحي القديم، فلما دخلنا باب المسجد لم ننتبه إلى أنه ينبغي أن نخلع نعالنا لأن المكان ليس نقيًا من

التراب وهو يفضي إلى ممر يفضي إلى فناء الجامع الكبير وليس إلى المسجد المفروش وكله أرض ترابية إلا أن بواب المسجد أو الفراش فيه أسرع إلينا ينهرنا ويأمرنا بأن نخلع نعالنا، ولما حاولنا أن نخبره أننا لم نكن نعرف أن الناس يخلعون أحذيتهم في هذه الأرض الترابية لم يقتنع حتى قلت له وأنا أخلع حذائي: ياأخي إننا مسلمون مثلك، ونحن نحترم المسجد كما تحترمونه.

وهنا تغيرت لهجته فجأة، وانقلبت علامات الاستنكار والتأفف التي كانت مرتسمة على وجهه إلى علامات ترحيب وسرور، وأخذ يشير بالاعتذار بما لا نفهمه من لغته، ولحسن حظنا كان أحد الأشخاص قد سمع الكلمات المتبادلة بيننا وبينه فأسرع يريد الإصلاح ولكنه عندما وصل كان النزاع قد تحول إلى سلام على الوجوه وفي الأيدي والشفاه.

وكان يبدو من هيئة الرجل أنه طالب علم، وقد تأكدنا من ذلك عندما أخذ يكلمنا بلغة عربية جيدة، وقال: اسمي (حاضرو إبراهيما) وأنا طالب علم أعرف اللغة العربية وهو بالفعل كذلك غير أنه لا يعرف إلا ما تعلمه منها في الكتب، ويظهر أنه لم يستعمله كثيراً.

وأول شيء فعله أن انتهر بقية الأطفال الذين كانوا يتابعوننا فانصرفوا، واخذنا نتأمل المسجد فإذا به مكتوب عليه اسمه (مسجد الشيخ المجدد عثمان نور الدين).

وقال الرجل: إنه أكبر جامع في مدينة (صوكوتو) وذلك أمر يبدو معقولاً لأن باحات المسجد واسعة سعة ظاهرة وتحيط بها أروقة إضافية من الجوانب الثلاث التي هي جوانب المسجد ماعدا الجهة القبلية التي

فيها المسجد نفسه. وهي مفروشة بالرمل الذي يميل لونه إلى الصفرة.

أما المسجد نفسه فإنه ذو قبة كبيرة مرتفعة نوعًا ما بنيت على غرار القبة التي على القبر الشريف النبوي.

وهو مفروش بالمشمع قد القيت عليه بشكل غير منتظم جلود كثيرة من جلود الغنم المدبوغة بمثابة فرش يصلي عليها المصلون، وهي كبيرة بشكل عجيب لأن الأغنام عندهم هي كبيرة الحجم كما قدمت، وبعضها تبرز فيه تلك الظاهرة العجيبة في بعض أغنامهم وهي كون نصفها الأمامي أوالخلفي أبيض تمامًا لا يخالط بياضه شيء وكون نصفها الآخر أسود تمامًا لا يخالط سواده شيء وكأنما قد خط اللونان بقلم فهما متساويان أو يكادان يكونان كذلك والخط الذي يفصل بينهما مستقيم ليس فيه شيء زائد على شيء آخر.

وقال الشيخ (حاضرو إبراهيما) إن هذا المسجد بناه (احمدو بيللو) رحمه الله.

ومن لطيف ما فيه أن سربًا من الحمام القمارى كان يطير ويقع فيه ويهدر مما يذكر بشيء مما يكون في الحرمين الشريفين من أمر الحمام وإن يكن نوع الحمام مختلفًا وكميته متفاوتة.

الجزولي في دلائل الخيرات:

كان أحد الذين تخرجوا في الجامعة الإسلامية من الطلبة النيجيريين الأوائل الشيخ (محمد الجزولي نوح) وكان آخر عهدي به أنني تلقيت منه رسالة منذ ٩ سنوات يخبرني فيه أنه يتولى عملاً مهما في مدينة (صوكوتو) ولذلك رغبت في أن التقي به هنا، ولم أجد من يدلني عليه أو على عنوانه.

فأنتهزت فرصة التعرف على هذا الأخ الذي يعرف العربية وهو طالب علم يفترض أنه يعرف طلبة العلم فسألته: أتعرف الشيخ (محمد الجزولي نوح)؟.

فأجاب بسرعة وثقة: نعم أعرفه كيف لا أعرفه.

ففرحت بذلك، وقلت له: أين هو؟ فقال: في (دلائل الخيرات) يريد بذلك شيخًا قديمًا له علاقة بهذا ا لكتاب، وعرفنا بعد ذلك أن صاحبنا الجزولي قد نقل عمله إلى مدينة «كانو» وأنه موجود فيها الآن.

وبعد حديث ممتع مع الأخ (حاضرو إبراهيما) رأينا شخصًا وقورًا في منتصف العمر طويل القامة عليه عمامة طالب علم فسلمنا عليه وسألنا عن اسمه فقال بلسان عربي مبين : (اسمي عبدالقادر بن محمد، وأنا فلاتي والشيخ عثمان رضي الله عنه من قبيلة فلاته).

وقد أردنا أن ننتهز الفرصة فنسألهما عن المؤسسات الإسلامية فنصحانا بأن نذهب إلى السلطان أمير المؤمنين لأنه هو الذي بيده الأمر وأن يكون ذلك بواسطة وزيره الدكتور محمد جنيد.

وذكرت بهذه المناسبة واقعة حدثت لي في الساحل الشرقي من جزيرة مدغشقر عندما قابلت ملكة تيمور العربية مصادفة، وذكرت ذلك في كتاب «مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين».

صوكوتو أكثر مدن نيجيريا شحاذين.

غادرنا (مسجد الشيخ المجدد عثمان نور الدين) وسرنا مع شارع عام قد غرسوا فيه أشجارًا من أشجار النيم الضخمة قد نام في ظلالها بعض الناس وجلس فيها بعض الشحاذين، وكان بعضهم ينادون خلفنا:

(كرامة في سبيل الله) مثلما كنا نسمعها من إخواننا التكارنة في مكة المكرمة في الزمن القديم. وخلصت من ذلك إلى أن مدينة (صوكوتو) هي اكثر مدن نيجيريا على الاطلاق شحاذين ومستجدين وما ذلك إلاّ لكون بعض الزوار والمتدينيين قد تعودوا الصدقة على الفقراء فيها فأصبح هؤلاء لهم عادة في ذلك وأصبح غيرهم من غير الفقراء أيضا يتخذون الاستجداء بمثابة المهنة الرابحة.

وعندما أصبحت الساعة تقترب من الثانية عشرة كان الهواء قد أصبح سموماً بعد أن كان في الصباح نسيماً بارداً عليلاً، وذلك هو شأن البلاد الصحراوية والشبيهة بالصحراوية.

فاستأجرنا سيارة أجرة توصلنا من وسط المدينة إلى الفندق بنيرة واحدة على أن يحمل معه من يريد إذا صادفه في طريقه.

وكان الفندق لا يزال الماء عنه مقطوعاً وحماماته العامة تنبعث منها رائحة كريهة لأنها لم يصلها الماء من قبل أن نصل أمس حتى الآن. وقال لنا المسئول في الفندق: إن سبب انقطاع الماء هو تعطل (الماطور) الذي يدفعه، فقلنا له: إن من شأنه ومن شأن جميع الالآت أن تكون معرضة للتعطل ولكن يجب إذا تعطلت أن تصلح، لاسيما إذا كانت تمد فندقاً أغلب سكانه من الضيوف الأجانب الذين دفعوا مالاً، وأملوا راحة مقابل ذلك.

أعطونا ماء:

من لطائف المصادفات – إن صح أن في الأمر مصادفة – أن إحدى الصحف التي صدرت اليوم ووزعها الفندق نشرت في صفحتها الأولى الموضوع الرئيسي وجعلت عنوانه الذي هو العنوان الرئيسي فيها

(أعطونا ماءً) وهي بالانكليزية.

ويقول المقال إن الأخبار التي وصلتهم من ولاية (النيجر) في وسط نيجيريا قد أفادت أن سكان القرى قد قاموا بمظاهرة إلى مجلس النواب المحلي وإلى حاكم المدينة وحملوا لافتات تقول: أعطونا ماء: لأن المياه منقطعة عنهم مند مدة وأنهم أكدوا أنهم سيظلون متجمهرين حتى يصلهم الماء، واسم الصحيفة (نشنال كونكورد).

وكنت أقول عندما قرأت المقالة واطلعت رفيقي الشيخ عبدالعزيز الربيعان على محتوياتها مع أولئك القرويين النيجيريين وإن كانوا من ولاية غير ولايتنا هذه: (أعطونا ماء) ثم قلت: (أعطوهم ماءً) فأنا راحل غداً إن شاء الله ولكن الحاجة إلى الماء لن ترحل عن هذه البلاد وغيرها وهو أعز شيء مفقوداً، وأهونه موجودا، كما في الأمثال.

وفي صحيفة نيجيرية أخرى صادرة اليوم أيضاً رأيناها في الفندق وهي بالانكليزية كالتي قبلها عنوان رئيسي بعنوان (حريق بترول لاجوس مستمر. وصعوبات في الإطفاء).

في ريف (صوكوتو):

كان تجوالنا السابق في مدينة (صوكوتو) وسيكون في مساء هذا اليوم في ريف (صوكوتو) فقد طلبت من إخواني النيجيريين وبخاصة من الأخ (عبدالغني دانوتي) أن أذهب إلى مسافة في الريف المتصل بمدينة صوكوتو، وذلك للاطلاع عليه بصفة عامة، ولمعاينة مارأيته فيه من الطائرة عن قرب.

فخرجنا من الفندق في الساعة الخامسة عصراً على سيارة الأخ

عبدالغني دانوتي وكان معنا الأخ الشيخ أبو بكر جبريل يتكلم العربية بطلاقة لأنه تعلم ذلك في السودان وهو شخصية معروفة هنا يُعلَّم في الدعوة إلى الله متفرغًا لذلك لا يتسلم الاّ مبلغ مائة نيرة من إحدى الجمعيات الإسلامية ونعم الرفيق هو لأنه خبير بشئون هذه البلاد إذْ هو من أهلها إلى جانب ذكائه وحسن تقديره للأمور.

تركنا المدينة قاصدين جهة الجنوب وكان الهواء لا يزال سمومًا خفيفًا، وكان أول ما لفت نظرنا ونحن لا نزال في مدينة (صوكوتو) منظر مسجد جامع ضخم تحت الإنشاء بالاسمنت المسلح، وقال إخواننا إن المملكة العربية السعودية قد ساعدت في نفقات بنائه.

وكان الطريق مسفلتًا سفلتة جيدة ومعتنى بها يقولون إنه يقود إلى مدينة كانو على بعد حوالي أربعمائة كيل.

وكان آخر الأحياء التي سلكناها في المدينة يسمى (بنادا) فيه الأحواش التي داخلها البيوت أسوارها من الطين أو القش وقالوا لنا ما قاله إخوان لهم من قبل: إن هذه البيوت التي تكون داخل حائط من القش أو الطين تكون في الغالب للرجل وزوجاته، وتكون منفردة عن البيوت الأخرى.

ومررنا في الطريق بمكان داخل غابة من أشجار النيم قالوا: «إنه مستشفى الجذام» وهو مقارب لقرية أغلب بيوتها من الطين.

ورأينا رجلين راكبين على بعيرين، وبعدهما آخر راكب على حمار، وأشجار صفراء بسبب الجفاف قالوا: إن المستعمرين الانكليز هم الذين غرسوها، وأنها لا تأكلها الدواب، ولا تنفع في تغذية الماشية بخلاف

الأشجار الطبيعية الأصلية التي هي أشجار صحراوية فان الأهالي ينتفعون باليابس منها للحطب والدوآب تأكل أوراقها وأغصانها الرقيقة.

قرية قندو دنداوه:

هذه القرية مررنا بها وقالوا: إنها سميت باسم رجل كان أول من سكنها، بيوتها من الطين المسقف بالزنك وفيها بيوت من القش هرمية الشكل.

ومن المناظر التي تسترعي الانتباه فيها منظر رجل قد روى على حماره أي جلب الماء من البئر على ظهر الحمار في أزيار من الفخار.

وتوالت القرى الصغيرة أو مجموعات المنازل المتفرقة في ريف صحراوي فيه آثار الزراعة في موسم الأمطار وهو يزرع فولا أو دخنًا.

ومن المناظر الملفتة للنظر في بعضها مسجد صغير على هيئة صف من الحص الصغير على الأرض، وفيه بعض المصلين المنفردين.

وبناء من الطين على هيئة المحراب مرفوع عن الأرض وذو سقف هرمي من القش ويستعمل مخزنًا للذرة والدخن.

والغنم من الضأن الكبير التي نصف الواحدة منها أسود ونصفه أبيض كأنما قسم ذلك بالنصف قسمة متساوية، وأبقار سمينة، ومظاهر الجفاف شبه الكامل في هذا الريف الذي فيه آثار الزراعة في الأرض، وأما البقية فإنه هامد وهو يذكرني بمنظر كنت رأيته في افغانستان في الطريق ما بين العاصمة كابول وبين مدينة غزنة إلى الجنوب منها وكانت زيارتي لها في آخر شهر ديسمبر، أي في شدة البرد، ولذلك لم

يكن فيها أي عود أخضر بل كل شيء أبيض من الثلوج الشاملة وعندما سألت عن علف الدواب وطعام الإنسان هناك أجابوا بأنه لا يوجد من ذلك إلا ما كان مخزونًا من قبل.

ومظهر هذا الريف النيجيري قريب من ذلك وإن لم يكن مماثلاً فالمواشي تستطيع أن تجد ما تأكله من الأشجار الصحراوية وبقايا الأعشاب والحشائش الصفراء المتخلفة عن موسم الأمطار، كما تجد في بقايا المزورعات القديمة ما يكفيها بعض الكفاية.

وشبه هذا الريف بالصحراء ليس مقتصراً على مظهر الجفاف في النبات فقط بل هناك الهواء الجاف الذي يكاد يقرب من أن يكون سمومًا، وبئر تجمع عليها الناس من رجال ونساء وبنيات يستقون منها الماء بجرار – جمع جرة – من الفخار ومسجد قد رفع جداره بمقدار نصف متر قد أعد للمصلين على قارعة الطريق وليس بقرب قرية أو منزل.

الحمير أغلاها الجنوبيون:

اعترضت طريق السيارة بعض الحمير فاضطر السائق الأخ (عبدالغني دانوتي) إلى تخفيف السرعة جدًا كما نفعل نحن الآن في طرقنا الطويلة في المملكة حين تعترض في الطريق بعض الحمير.

وكانت الحمير تسبب عندنا الحوادث عندما تقف في الطرق، وتوجد في البرية بكثافة لأن الناس عندنا قد رغبوا عنها فأهملوها واستعاضوا عنها بسيارات الحمل الرخيصة التي أغلبها من صنع ياباني فتناسلت

الحمير وكثر عددها. وأصبحت الشكوى منها كبيرة.

حتى أصبح الناس يبحثون عن حل لمشكلة وجودها المتزايد لما يسببه ذلك من مشكلات وقد تظرف بعضهم فقال: إن الزمن سيحل مشكلتها بأن يأكلها الناس، فلما استنكرنا قوله أوضح مراده بأنها حين تستمر مهجورة لمدة طويلة فإنها تتوحش فتصبح من الحمير الوحشية التي يحل أكلها، وتخرج بعد ذلك عن صفة الحمير الأهلية التي لا يجوز أكلها.

وسألتهم بهذه المناسبة عن أسعارها هنا؟ فأجابوا: أنها قد ارتفعت الآن وكانت رخيصة من قبل، والسبب في ذلك هم الجنوبيون أي: أهل جنوب نيجيريا فهم يأكلونها لذلك تشحن أعداد منها إلى هناك ليأكلوها.

وقالوا: إن قيمة الحمار الجيد الآن ما بين مائة نيرة وثمانين نيرة.

وقد فوجئوا لما أخبرتهم به من أن الحمير ليس لها ثمن عندنا الآن بل إنها مباحة لمن يريد أن يأخذها.

على شفير البئر:

كان لابد لي من الوقوف على بئر داخلة قليلاً عن الطريق يستقي منها الناس وليس بقربها قرية وذلك لمشاهدة طريقتهم في الاستقاء.

فوجدنا عمق البئر حوالي ٧ أمتار والماء فيها ليس كثيراً، وربما كان السبب في ذلك أنها تحتاج إلى تعميق.

ومشاهدة الماء في البئر جعلنا نتساءل عن السبب الذي جعل النيجيريين لا يقبلون على الاستفادة من المياه الجوفية واستغلال الأرض في مواسم الجفاف؟.

وكـان الجـواب السـريع أن السـبب في ذلك يرجـع إلى عـدم تعـود الأهالي على استعـمال الآلات الرافعة للمياه، وعلى عجـز بعضهم عن تحصيل قيمتها.

وكـان التـعليق عـلى ذلك أن الأول - يمكن تـذليله باجـراء تجـارب حكوميـة تصلح لأن يقلدها الأهالي وتبـصرهم بفوائد اسـتعـمال الآلات الزراعـيـة. وعن الثانـي - بأن العائـد من الزراعة مـن الدخل هو كبـيـر ويستحق الاستثـمار على ضوء الأسعار المرتفعة للفـاكهة والخضروات بل والحبوب في هذه البلاد.

كان الجـو قد ازداد لطفًا وولى سمومـه بسبب قرب غـروب الشمس، وكان على البـئر سقاة كلهم رجال لأنـهم فيما ذكروا لنا هـم الذين حفروا هذه البئر من أجل أن يبيعوا منها الماء على القرى والمنازل القريبة.

وينقلون الماء في صفائح يحمل الرجل على كتفه صفيحتين قد شدهما إلى عـصـا كمـا كـان يفـعل السـقـاء عندنا في الحـجاز قـبل إسـالة الميـاه بالأنابيب إلى البيوت.

وقالـوا: إنهم يبيـعون الصـفيـحتين المملوئتين بثـلاثين (كوبو) بـعد أن يقطعـوا على أرجلهم وهم يحـملون الماء مـسـافـة تزيد قليـلاً على الكيلو الواحد.

كان عـدد السقـائين هؤلاء ستـة وكلهم من أهل البلاد هذه أومـا قرب منهـا إلا واحـدًا هو فـتى عـربي اللون كـأنه من الشنـاقطة الموريتـانيين، ولذلك كلمنا بلغة عـربية سليمة، فلمـا سألته عن بلاده قال: إنهـا النيجر

غير أنه أخذ يحدثنا بلغة فيها ألفاظ وتعبيرات من الصحراء لا يتكلم بها إلا ذو لغة عربية أصلية وبعضها موجود كما يعرفها هو، فأعدت السؤال عليه لأتأكد مما قال إنه من النيجر لأنهم هناك أغلبهم يتعلمون العربية تعلماً، ويعرفون منها كلمات وجملا فصيحة، فقال وهو يهمس في أذني: في الحقيقة أنا من ليبيا.

فسألته عن عمله؟ فأجاب: كما ترى، أنني سقاء مثل هؤلاء أنقل الماء من البئر وأبيعه في القرية.

ولم أقتنع بأنه يفعل ذلك للحاجة وإنما خطر في بالي أنه جاء إلى هذه البلاد لغرض وامتهن مهنة السقاء يغطي بها غرضه الحقيقي.

ثم عدنا إلى مدينة (صوكوتو) بعد أن بلغنا في هذا الريف الشبيه بالصحراوي بعداً أقصاه ثمانون كيلاً من (صوكوتو).

السعي إلى مقابلة أمير المؤمنين:

مر علينا الأخ (محمد بابا غوساو) رئيس قسم الدراسات الإسلامية في كلية التربية، وهو الذي كان قد استقبلنا في المطار عند وصولنا (صوكوتو). وقال: إنه يجب علينا أن نذهب الآن إلى بيت الحاكم لأنه كان قد طلب منا ذلك عندما رآكم في المطار ووافقتم عليه، فسألته عما إذا كان قد قدم من سفره؟ فأجابه: إنه لا يعرف ذلك، ولكن لا ينبغي أن نتأخر عن زيارته فقلت له: ليكن.

وذهبت معه في سيارته إلى بيت الحاكم فكان البيت يبدو بهياً واسعاً فيه عدد من الخدم والحشم أخبرنا أحدهم بأن الحاكم لم يعد من سفره بعد.

فسألني الأخ محمد بابا عما إذا كنت أرغب في زيارة (أمير المؤمنين)؟ فقلت له: إنني أسعى إلى ذلك سعيًا، فأمير المؤمنين لقب يذكرنا بما كان للمسلمين من أمجاد، وهو مستوحى من معنى إسلامي جليل.

وذهب الشيخ محمد بابا إلى قصر أمير المؤمنين في داخل المدينة بخلاف قصر الحاكم الذي كان في ضاحية من ضواحيها.

فلما قربنا من البوابة الخارجية وجدنا عندها عددًا كبيرًا من الخدم والأتباع اعترضنا أحدهم فقال له الشيخ محمد بابا بلغته: إن معي رجلاً من السعودية مسئولاً هناك عن أمور دينية وإنه يريد ا لسلام على أمير المؤمنين.

فقال الرجل: انتظر حتي أنادى لك مسئولاً فجاء رجل قال: انه لابد من مراجعة حاجب أمير المؤمنين أولاً.. وهو موجود الآن في بيته لأن الساعة كانت قد تعدت الثامنة ليلاً.

وركب الرجل معنا يدلنا على بيت الحاجب فدخلنا في حارة ليس فيها كهرباء، وإنما تقدمنا ذلك الرجل معه مصباح كهربائي يدوي فطرق بيت الحاجب الذي أسرع إلينا وقال: إن المقابلة ينبغي أن تكون في الثامنة من صباح الغد، لأن أمير المؤمنين لا يجلس الآن.

يوم الجمعة: ٢٨/٥/١٤٠١هـ - ٣إبريل ١٩٨١م.

مر عليّ الأخ (محمد بابا غوساو) وهو رجل ذكي وحصيف وهو يقود سيارته بنفسه.

فخرجنا من الفندق مبكرين قاصدين قصر السلطان أمير المؤمنين، وخليفة الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله. ورأيت طائفة من الحمام كان من أعجب ما يعجبني فيه رؤية القمارى منه وهو هنا كثير ويكاد يكون نوعين أحدهما كبير والآخر أصغر منه، والصغير هو الذي نعرفه في بلادنا، يأتي إليها مهاجراً في الخريف والربيع عندما يقوم بهجرته السنوية القديمة من شمال الأرض إلى جنوبها في كل عام مرتين. كما تقوم بذلك غيره من الطيور، وعندهم في (صوكوتو) حمام آخر مثل الحمام الأهلي الذي نربيه عندنا في البيوت إلا أنه هنا أكبر، فسألت الشيخ محمد بابا عما إذا كان الأهالي يأكلون الحمام؟.

فأجاب: نعم، ولكنهم يفضلون لحم البقر عليه وعلى أي لحم آخر.

على باب القصر:

وصلنا إلى باب القصر فرأينا خارجه جماعات كثيرة من الناس، وهو باب خارجي شبيه بالبوابة عربي الطراز يساوي في ارتفاعه ارتفاع أربعة طوابق من العمارات المعتادة وينتهي أعلاه بقوس عربي جميل على هيئة هلال عربي، أقرب إلى الطراز الأندلسي المعروف.

فأوقفنا السيارة جانبًا. ثم دخلنا وقد ارتديت اللباس العربي الكامل ولبست العباءة (المشلح) فكان ذلك ملفتاً للنظر مع أن عدد الناس كبير.

ودخلنا من البوابة الخارجية مع ممر مرصوف مستقيم يمينه وشماله فناء ينتهي من الجهتين بأروقة قد جلس فيها مئات من الناس ان لم يبلغ عددهم الآلاف.

وقال الأخ محمد بابا: إن هؤلاء كلهم يسلمون على ا لسلطان – كان تارة يسميه باسم السلطان وتارة يسمونه بأمير المؤمنين.

ويلفت النظر أن هذا الجمع الغفير من الناس كلهم قد لبسوا الملابس النيجيرية التقليدية وهي ملابس فضفاضة واسعة بحيث يكفي الثوب لو فصل على الجسد تفصيلا لثلاثة أشخاص، وهي متفقة كلها تقريباً في كونها فضفاضة كأنها قد كومت على الجسم تكويماً إلا أنها مختلفة في ألوانها فبعضها من لون واحد وبعضها من عدة ألوان.

ورأيت طائفة يزيد عددهم على ألف قد استندوا على أحد الحيطان الداخلية وهم ينفصلون عن غيرهم فقال الأخ (محمد بابا) إن هؤلاء جاؤا لغرض واحد هو الأكل فهم يأتون في الصباح ليأكلوا ثم ينصرفوا.

والغريب أن جميع المنتظرين سواء منهم من جاء للسلام فقط أو من جاء لغيره ومن كان غنيًا ووجيهًا أو من كان فقيراً أو من سائر الناس قد جلسوا على الأرض دون وقاية تقيهم فليس من عادة الناس هنا أن يجلس أحد على كرسي في قصر السلطان غير السلطان وأنني أعجب منهم كيف لا يخشون أن تتسخ ملابسهم من غبار الأرض ووسخها إذا جلسوا عليها بملابسهم النظيفة.

ورأيت طائفة من الناس قد لبسوا ثياباً خاصة يكون الثوب الواحد منها ملوناً بألوان فاقعة من الأحمر والأخضر والأصفر يجمعها كلها ثوبه الواسع ويلبسها فأخبرونا إن هؤلاء من الخدم بمثابة الجنود أو بمثابة من نسميهم عندنا في المملكة بالخويا - جمع خوي - وهم الجنود والحراس التقليديون للحاكم قبل وجود الحرس النظامي.

وسلم علينا رجل ذو مظهر سني وهيئة مهيبة فقالوا لي: انه الشيخ عادلي أمير الشرطة وأنه هو وحده الذي يأذن بالمرور إلى حيث مجلس السلطان.

ولما تعجبت من هذه المظاهر العظيمة للسلطان قالوا لي: إن له مكانة عظيمة في نفوس القوم حتى إن رئيس الدولة إذا حضر إلى (صوكوتو) هو الذي يأتي لزيارة السلطان والسلام عليه ولا يذهب السلطان إليه. حتى ولو كان رئيس الدولة مسيحياً. ويقولون إن الامتيازات التي للحاكم في المراسم ونحوها للسلطان، ومن الطريف أيضاً أن هناك قسماً من أحد الحيطان في هذا القصر الواسع كانت قد اصطفت تحته على الأرض جماعات من النساء المسنات خاصة. قالوا: إنهن جئن للسلام على أمير المؤمنين.

في حضرة أمير المؤمنين:

قربنا من دخول القسم من القصر الذي يجلس السلطان في إحدى غرفه فأمرنا الموكلون به بخلع أحذيتنا احتراماً لأمير المؤمنين فخلعناها مع أننا لا نزال بعيدين عن غرفة الجلوس السلطانية.

دخلنا إلى هذا القسم من رواق أفضى بنا سريعًا إلى قسم من القصر أول ما تقع عينك فيه على اسطبل في ناحية منفصلة منه، فيه أعداد من الخيل كلها ذات لون أدهم. ما عدا واحدًا فهو حصان أبيض وقالوا: إن الخيل تكاد تكون هي شعار هذه السلطنة وأنها لابد منها في الركوب في المراسم والمناسبات الهامة مثل ذهاب السلطان إلى صلاة الجمعة.

وقد تكاثف في هذا المكان عدد الأتباع والحشم وأصبحت ألبستهم أكثر تلويناً حتي إن عمائهم كلها ملونة.

وأما الزوار فإن عددهم قليل هنا لأنه لا يتجاوز هذه النقطة إلا عدد معين في الأحوال المعتادة والجنود أو قل الأتباع الذين هنا بعضهم جالس وبعضهم واقف إلا أن الجالسين منهم كلهم على الأرض دون كراس.

ومن الطريف أن الاسفلت الذي بلطت به أرض هذا القسم هو أخضر اللون، أي هو ملون كما أن ثيابهم ملونة.

وعندما وصلنا إلى قرب الغرفة التي فيها السلطان جاء إلينا رئيس الخدم أو إن شئت قلت: رئيس الجنود التقليديين وقال: انتظروا هنا لحظة فالسلطان جالس.

وقد وقفنا منتظرين وكان على باب غرفة الجلوس ضابط من الشرطة بالملابس العسكرية وهو الشخص الوحيد في هذا الخضم من الناس الذي يرتدي ملابس حديثة.

وجاء الحاجب ونائب الحرس فتأكدوا من شخصيتنا مرة أخرى.

ثم جاء الحاجب يأذن بالدخول فوجدنا السلطان في غرفة متوسطة السعة فيها خمسة كراس جلس هو على أحدها في صدر الغرفة والباقية خالية وليس عنده إلا وزيره الدكتور محمد جنيد. والأمير محمد بيللو من الأسرة المالكة ويسمونه (ماكا جنرافي) بمعني أمير. وهما جالسان على الأرض.

سلمت على السلطان وذكرني وهو جالس بصورة الزعيم أحمدو بيللو رحمه الله عندما كان يأتينا في المدينة المنورة فهو يشبهه تمامًا ولا غرو فهما من أسرة واحدة.

إذ السلطان هذا هو أبو بكر الثالث بن عثمان بن معاذ بن محمد بيللو بن مؤسس الدولة الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله.

إلا أن السلطان يزيد لباسه على اللباس الذي كان يلبسه أحمدو بيللو بالعباءة العربية إذ هو زيادة على ملابسه الفضفاضة الكثيرة يرتدى فوقها عباءة عربية خفيفة ولكنها ليست من النوع الفاخر عندنا، وبيده مروحة من الخوص (مهفة) منقوشة.

وقد وضع على رأسه عمامة كبيرة جعل جزءًا منها ينزل تحت حنكه ويرتفع ليغطي ما كان أسفل من فمه، ومن الطبيعي القول بأنه أسود اللون لأن هذا هو اللون المعتاد لجميع الناس في هذه البلاد.

عندما سلمت لم أركع له بطبيعة الحال كما كانوا يركعون ولم يطلب مني أحد ذلك رغم أنني كنت قد سمعت أن من يدخل عليه لابد له من أن يفعل ذلك حتى كبار العلماء والزعماء.

وانتظرت أن يدلني أحد منهم على الكرسي الذي أجلس فيه أو على المكان من الأرض فلم يفعلوا فجلست بجانب الأمير علي على الأرض لأن الكرسيين الذين بيني وبين السلطان قد جلس أسفل واحد منهما الوزير وجلس أسفل من الثاني الأمير.

أخبرت السلطان بمهمتنا وقلت له: إننا قد جئنا إلى هذه البلاد من أجل التعرف على إخواننا المسلمين فيها والاطلاع على مشروعاتهم الإسلامية وإنني انتهزت هذه الفرصة للسلام عليكم والتحدث إليكم وأنتم حفيد الإمام المجدد محيي الدين ورافع راية الجهاد في هذه البلاد الإمام عثمان بن فودي (رحمه الله)

فترجم الأخ محمد بابا له كلامي فلم يزد السلطان على قوله (موفقين) والتفت إلى وزيره الدكتور محمد جنيد فرد على كلمتي باللغة العربية رداً مطولاً جميلاً مهلياً مرحباً بدون مبالغة في ذلك.

ثم عاد السلطان يسأل عن الحال، ويحفي السؤال، فشكرته على ذلك، وقلت له: إنني سوف أبلغ إخوانكم في الدين في المملكة ا لعربية السعودية ما رأيته في بلادكم من مظاهر التمسك بالدين ومحبة إخوانكم المسلمين.

ثم لبثنا هنيهة ساكتين ولم يكن في المجلس غير من ذكرت فاستأذنت في أخذ صورة معه فرحب بذلك ووقفت بجانبه والأخ محمد بابا يلتقط الصورة ولكنه لم يستطع استعمال المصباح في الآلة لأن النور في الغرفة ليس كافياً لأخذ الصورة بدون مصباح ثم أستأذنت وانصرفت.

وكانت الساعة التاسعة عندما تركنا القصر وهو رحب كبير إلا أننا لم نر إلا قسمًا منه بسبب ضيق الوقت ولأن هدفنا الأول هو السلام على السلطان.

ويقع أمام القصر مباشرة ميدان غير واسع بعده مسجد شامخ المآذن اسمه مسجد السلطان محمد بيللو.

وهو صاحب كتاب (انفاق الميسور – من أخبار التكرور).

وكتاب ضياء الحكام وغيرهما من المؤلفات العلمية.

المقام التكروني:

وكدت أقول: العزة التكرونية لولا أنني كرهت لفظ العزة لغير الله، أما كلمة تكروني فرغم كوني أكرهها لكونها تدل على ما تدل عليه كلمة زنجي في بعض البلاد فإنها كلمة تاريخية لا تدل على ذلك عند أسلافنا المسلمين كما سبق وأقول إنني لم أر الترفع وعلو المقام، والتمسك بالمظاهر التي تدل على الاحترام في مكان من إفريقية مثلما رأيت ذلك هنا.

فالسلطان ذو مظهر مهيب، وهو ذو رزانة أيضًا، والقوم الذين حوله وخلفهم شعبهم يحافظون على أن يظل مقام السلطان محترمًا، وأن تظل مكانته الرفيعة محفوظة رغم أن البلاد التي هم في جزء منها وهي نيجيريا جمهورية.

مع أن منصب السلطان أمير المؤمنين هذا هو منصب وراثي لابد لمن يناله من أن يكون من أسرة الزعيم الشيخ عثمان بن فودي.

ومما ينبغي تسجيله أنه رغم هذه المظاهر التقليدية الرسمية فإن ذلك كله كان يتم باحترام وبنظام فلم أر ما يدل على غير ذلك فيما رأيته من أمرهم.

مع الوزير الذكي:

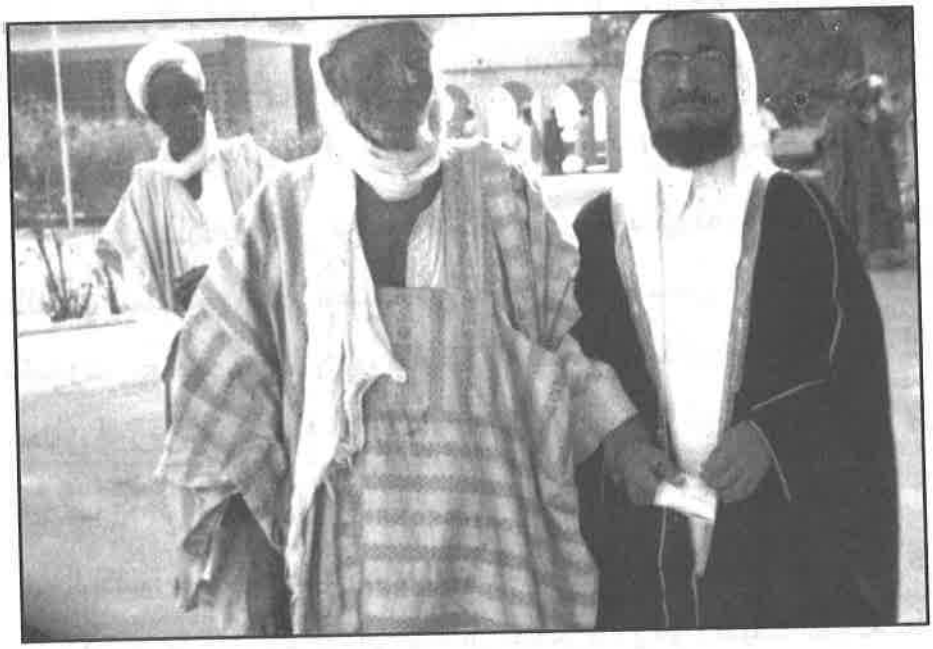

المؤلف مع الدكتور الجنيد وزير أمير المؤمنين في صوكوتو

وزير أمير المؤمنين هو الدكتور محمد جنيد الصوكتي – نسبة إلى مدينة صوكتو هذه – وهو لم يتدرج في مراحل الدراسة حتى يحصل على شهادة الدكتوراه، وإنما حصل على هذه الرتبة من جامعة أحمدو بيللو كان قدم إليها بحوثا في تاريخ (الحوس) أي الهوسا، كانت فريدة في بابها فمنحوه هذه الرتبة تقديراً لجهوده الفكرية في هذا المجال كما قيل لنا.

عندما نهضت مودعًا السلطان نهض الوزير والأمير علي فلما خرجت تبعني الوزير لأن موعد خروجه قد حان.

فانتهزت الفرصة واعترضت طريقه أسأله عن الأجداد الذين بين السلطان والشيخ عثمان بن فودي، وكان قد أخرج من جيبه علبة وأخذ منها مسحوقا دقيقًا جدًا وضعه في فمه، فقال بسرعة عجيبة: بينهما ثلاثة، ولم يتمهل حتى يصبح ذلك الذي التهمه مبلولاً في فمه فتطايرت أجزاء منه وهي كالرماد في وجهي ووقع بعضها على لحيتي.

ولم أبال بذلك بل أنني فرحت لذكائه وسرعة بديهته، وقد عرفت بعد ذلك أن المسحوق الذي وضعه في فمه هو نوع خاص من الدخان هكذا أخبرني بعضهم وقال: إن فائدته أنه ينفع الأسنان، وكنت قد تأملت أسنان الوزير فلم أجد له الاّ سنًا واحدة سوداء وأما الباقيات فمكانها من فمه فراغ.

والدكتور محمد جنيد هذا مؤلف وكاتب ذكي بل ربما كان من أذكى من رأيتهم من المسئولين في شمال نيجيريا، وهو نحيف القامة على عكس العادة في ذوي المقامات في هذه البلاد الذين تغلب عليهم البدانة من أجل الاكثار من الأطعمة الدسمة، وعلى رأس أولئك البدينين السلطان أمير المؤمنين أبو بكر الثالث هذا.

والوزير جنيد من الفلاتيين ولكن مظهره قريب من مظهر الطوارق لولا زيادة من السواد الطبيعي في هذه البلاد في لونه مع أنه أقل سوادًا من كثير من بين قومه، وهو خفيف الجسم سريع الحركة رغم ان عمره في حدود السبعين وقد سألته عن عمره فقال: نحن لم نكن نؤرخ المواليد

وإنما عمري فوق الستين. ولم يقل: إنه تحت كذا.

وقلت له: أنني انتهز هذه الفرصة لأسألك عن بعض الأشياء المتعلقة بهذه البلاد فأنا ممن يهوون الكتابة وأحب أن أكتب شيئًا عن هذه البلاد.

فقال بسرعة: لا تكتب الا صحيحًا لأن بعض الذين كتبوا عنها كتبوا كذبًا بكذب كذبًا بكذب.

فقلت له: ما هو الكذب بالكذب؟

فقال: كتبوا أن الشيخ عثمان بن فودي كان قد سافر إلى الحجاز وتلقى العلم في مكة المكرمة وهذا غير صحيح ثم أخذ يدي بيده وخرج بي من القصر.

وكان الناس الذين يمر بهم يشيرون إليه بالتحية بقبضات أيديهم ويرفعون الإبهام منها ويظهرون له الاحترام الشديد.

وكل من يمر بقربهم ينهضون من أماكنهم حتى الأطفال ولو لم يكن مروره بهم مباشرًا.

وعندما خرجنا من بوابة القصر، وكان لا يزال ممسكًا بيدي قال له الشيخ محمد بابا: إنه جاء معي بسيارتي فقال بسرعة وبايجاز: يكون معي وأنت تتبعنا.

وكان كلامهما بعربية فصيحة كأنما العربية لغتهما الأصلية، فركبت معه في سيارة له جديدة وقلت: إلى أين؟

فقال: لاعطيك كتابًا لي باللغة العربية متعلقًا بهذه البلاد.

فسررت بذلك لأنني عرفت عنه قبل ذلك أنه مؤلف مشهور بلغات ثلاث هي العربية والفلاتية والهوساوية.

في بيت الوزير:

وقفت سيارة الوزير أمام بيت قديم من الطين القوي بدليل سماكة حيطانه، ووجود دعائم من الطين والحجارة لها، فأسرع الدخول كما كان يسرع في المشي والكلام رغم أنه في تقديري في حدود السبعين ودخلت معه مسرعاً بقوة الجذب لانه كان يجذب يدي بقوة، ونظرت إلى السقف في البيت فإذا به عال كما كانت سقوف بيوت الطين للوجهاء والكبراء عندنا تكون عالية في الغالب، وهو مسقف بأخشاب غير غليظة إلا أنها متقاربة وفي الزوايا أخشاب آخرى قصيرة تكون بمثابة التقوية تحت الأخشاب الرئيسية.

جلس الوزير في غرفة الجلوس وهي من الطين كما قدمت بل إن حيطانها غير متساوية الأجزاء تماماً فأعلاها أضيق قليلاً من أسفلها.

وقد وضع للوزير حصير منقوش على هيئة (سفرة) مستديرة كاملة الاستدارة لا يجلس معه عليها أحد وليس في الغرفة فراش غيرها إلا قطعة من السجاد غير كبيرة جلست عليها أنا والشيخ محمد بابا غوساو.

وأما الموجودون غيرنا ومنهم حاجب الوزير واسمه (عثمان محمد) فإنهم جلسوا على الأرض المبلطة بالاسمنت تبليطًا ضعيفاً، وفي غرفة الجلوس هذه على صغرها النسبي عمود غليظ في الأسفل دقيق الأعلى

وبابا الغرفة هما كذلك واسعان من الأسفل ضيقان في الأعلى التماساً لقوة البناء.

وقد جلس الذين معنا غير الوزير على الأرض رغم أنه كانت هناك ثلاثة فرش من الحصر المستديرة كالتي عليها الوزير متروكة بعضها فوق بعض بدون استعمال.

كان الوزير كما قلت سريعاً في كل شيء في كلماته وفي تصرفاته فأحضر إلينا سريعاً كتابين من تأليفه وهما مكتوبان بالخط المغربي الجميل وكتب على كل واحد إهداءه إليّ بخطه.

أحدهما لم يكتب عنوانه عليه وإنما قال فيه بعد الخطبة: أما بعد، فان علم التاريخ من أنفع ما عني به الإنسان، وألذ ما استمع إليه الأذنان لا سيما علم تاريخ وطنه، وأمراء بلده، فلذا رأيت أن أذكر خلفاء هذه الدولة المباركة العثمانية، وأرتبهم على ترتيب خلافتهم، وأبين مزار كل واحد منهم، وأجمع ما وقفت عليه في الكتب المؤلفة في ذلك، وأجمع شتات أخبارها والحق بعض ما ترك منها، وأزيد فيها ما لم يكتب إلى وقتنا هذا، يكون كتاباً مستقلاً جامعاً لما في تلك الكتب وسميته بضبط الملتقطات من الأخبار المفرقة في الوفيات.

ثم ودعناه وخرجنا من الغرفة فإذا في الفناء حصان مربوط قالوا: إنه حصان الوزير يركبه في المناسبات.

وتأملت البيت من الخارج ومن الممرات فاذا به كله من الطين، واكثره راعى بانوه فيه القوة أكثر مما راعوا فيه التناسق والجمال في البناء.

وبيته كبير ذو أفنية واسعة، وبقربه بيت من لبن الاسمنت وليس من الطين هو بيت الضيافة للوزير ينزل فيه الوزير ضيوفه.

إلى كلية التربية:

ذهبت إليها مع الأخ الشيخ(محمد بابا غوساو) مسرعين على أمل أن ننتهي من زيارتها قبل أن يحين موعد الخروج إلى المطار.

وكنت قد خلفت الأخ الزميل عبدالعزيز الربيعان في الفندق ليستقبل من قد يأتون من الزوار.

وتقع الكلية في ضاحية جديدة خارج المدينة القديمة.

فأوقف الشيخ محمد بابا سيارته خارج الأبنية الرئيسية للكلية وترك زجاجها مفتوحاً فقلت له: ألا تخاف عليها من السرقة أوالعبث؟ فقال: لا، هنا أمان ولسنا مثل لاجوس.

أول ما لفت نظري في الكلية فتيات من الطالبات متسترات قد سترن رؤسهن وصدورهن فقال الشيخ محمد بابا إنهن من طالبات قسم الدراسات الإسلامية، وإننا نلزمهن بالتستر.

وسلمنا على العميد (محمد مصطفى بنزا) في مكتبه في الكلية وقد وجدنا عنده بعض المسئولين فيها منهم المسجل.

ثم قمنا بجولة في داخل الكلية شملت المكتبة العامة وهي كبيرة جداً بالنسبة إلى كونها مكتبة كلية واحدة وفيها قسم إسلامي فيه كتب كثيرة بالعربية والانكليزية تبحث في الموضوعات الإسلامية، ويبلغ عدد الطلاب في الكلية حوالي ألفين منهم خمسمائة وأربعون طالباً وطالبة

في قسم الدراسات الإسلامية كما قال لي الأخ محمد بابا.

وقد دخلنا مكتبه وهو واسع مناسب فيه كتب كثيرة، وما يلزم للمكاتب الكبيرة وختام الجولة كان الاطلاع من بعد على افنية الكلية الفسيحة التي غرست فيها بعض الأشجار والزهور.

ورأيت فيها رجلاً غربيًا أبيض يقيس أشياء في الأرض ويمسح بعض المواضع قالوا لي: إنه يخطط أرض الكلية.

يدفعون للطلاب مكافآت:

سألت الأخ الشيخ محمد بابا عن الرسوم التي يأخذونها على الطلاب؟ وقلت له: إذا لم تكونوا تأخذون ذلك فهل معنى ذلك أن الدراسة فيها مجانية؟

فأجاب: نحن ندفع للطلاب مكافآت مقابلة لتفرغهم فنعطي في المتوسط خمسمائة نيرة كل ثلاثة أشهر.

وعجبت من ذلك لأنني كنت أظن أن الدفع يكون في البلاد القليلة السكان الغنية في الموارد مثل المملكة وبعض البلدان العربية.

ولكني عرفت بعد ذلك أن المناطق الشمالية من نيجيريا شعرت منذ سنوات بأنها قد تخلفت في ميدان التعليم الجامعي عن الشرق والغرب في نيجيريا فصارت تشجع الطلاب على الدراسة.

السفر إلى كانو:

سألت عددًا كبيرًا من الناس من مثقفين وغير مثقفين عن معنى اسم كانو أواشتقاقه ومنهم أمير كانو نفسه، فكلهم قالوا: إن الاسم قديم وأنه

قد حيكت حوله خرافات عديدة لأنه لا يوجد تسجيل قديم مكتوب له.

قال بعضهم: إن اسم (كانو) هو على اسم رجل قديم جاء منذ ألفي سنة إلى مكان المدينة وسكنه فسميت باسمه وأنه كان قد جاء من بغداد ولا يعرفون إلى أي جنس من الناس ينتمي.

وذكر عدد آخر منهم أن رجلاً من أهل المدينة المنورة رأى رسول الله ﷺ في المنام فأمره الرسول ان يذهب الى بلد في المغرب.

قالوا: ولم يعرف هذا الرجل ذلك المكان فأخذ تراباً من تراب المدينة، وتوجه غرباً وصار يقارن ما معه من تراب المدينة بالمناطق التي يمر بها حتى وصل مكان مدينة (كانو) فوجد أنه موافق لتراب المدينة المنورة فعرف أنه المقصود ونزل بها وكان اسمه (مقبل) وتزوج امرأة من الهوسا فكان أول من سكن بها ولم تذكر هذه الأسطورة سبب تسميتها بكانو.

مع العلم بأننا رسمناها (كانو) حسبما تنطق به الآن وإن كنت وجدت في بعض الكتب العريقة وبخاصة الكتب المؤلفة بالعربية في السودان الغربي اسمها مرسوما (كنوّ) بدون ألف بعد الكاف.

قال: الشيخ آدم عبدالله الألوري:

«كنو» أشهر بلاد هوسا القديمة والحديثة وأغناها وأوسعها وأرقاها ويرجع تاريخها إلى عهد بعيد مختلف فيه.

إذ من المؤرخين من يعيده إلى ما قبل المسيح عليه السلام ومنهم من يقف به على عتبة فجر الإسلام. وكذلك يختلفون في ابتداء دولها وملوكها هل يرجع ذلك إلى ٢٠٨هـ أو الى ٣٣٠هـ أو إلى ٤٤٤هـ من

الهجرة أو ١٠٠٠سنه ميلادية كما يختلفون في سكانها الأولين هل هم البرابرة الحدادون الذين نزلوا حول جبل دالا حيث يصنعون بها الحديد وآلات الحرب والزراعة؟ أم هم النوبة الذين نزلوا بها على قصد الاصطياد ثم لحق بهم الآخرون مزارعون ممن هاجروا من شمال افريقيا عبر الصحراء الكبرى فتكونت بهم قرية متوسطة السكان.

ثم حدث أن وقعت مجاعة عظيمة في القرى المجاورة لكنو فانحاز الناس إليها لما فيها من الخصب والرخاء والبركة والسلام.

وكان أهل كنو هملاً من راع يسوسهم ولما آل عرش دورة إلى باو بن بايزيد أوفد إليها كبير أبنائه المسمى بغودا مع جملة من العبيد والإماء فبدأت بها هيئة ملكية وتعاقبت أسرته في المملكة حتى بلغ عددهم ثمانية عشر ملكًا في مدة تقرب من أربعمائه سنة وانقرضوا في آخر سنة (٨٢٨م) ثم قامت الأسرة الرنفاوية وبلغ عدد ملوكها تسعة، وتقدر مدتهم بنحو مائة وأربعين عامًا وأولهم محمد رُنفا الذي يعد من أعظم ملوك كنو وكان عهده أزهى العصور الكنوية وهو الذي بنى القصور والحصون والأسوار وجدد بناء الجامع ووسع رحابه حتى صار يضم نحو خمسة آلاف مصلٍ.

وفي عصره حضر الشيخ محمد المغيلي إلى كنو ومكث بها مدة تولى فيها القضاء والإمامة وتزوج بها وخلف ثلاثة أولاد وهم أحمد وعيسى والسيد الأبيض وكذلك حضر الشيخ عبدالرحمن الزناتي والجلال السيوطي وغيرهم من الأعلام.

وبالجملة كان عصره عصر النور والعلم والثقافة والمدنية والتجارة، وفي زمن محمد كزولى الملك الثاني من أسرته استولى محمد أسكيا

على كنو مع سائر بلاد هوسا ١٥١٣م، وانقرضت الدولة الرنفاوية على رأس سنة ألف وعشرين من الهجرة وفي آخر أيامهم هاجم كنو قبيلة قرارفا وأوسعوا أهلها قتلاً وتدميراً حتى اضطر الكنويون إلى مغادرة بلادهم هاربين منها إلى دورة ولكن المهاجمين لم يلبثوا أن رجعوا إلى بلادهم فعاد الكنويون إلى موطنهم.

ثم قامت الأسرة الألولَية وعدد ملوكها خمسة عشر ملكًا وعاشوا مائتي عام ثم قامت الأسرة الفلانية وكان ابتداء ذلك سنة ١٢١٩هـ.

الإسلام في كانو:

لقد دخل الإسلام إلى كنو سنة ١٣٠٠م في عهد الملك عثمان زَمنقَاوى الملك ا لحادي عشر من الأسرة الغوداوية على أيدي العلماء الونغاريين الغانويين الذين حضروا إلى كنو وبشروا بالإسلام للملك وأسلم فأسلم معه كثيرون ثم ازداد الإسلام قوة في عهد الملك كنَجيج وفي عهد ابنه عمر الذي أحب الإسلام والعلماء وقربهم إليه وتعلم القرآن والحديث والفقه وعمل على نشر العلم وأغدق على أهله الرزق، وشجعهم على طلبه، والاقبال عليه، والتبحر فيه، وهو الذي سبق محمد رنفا في ذلك كله.

«انتهى كلام الشيخ الألوري»

من صوكتو الى كانو:

انهينا اجراءات السفر في قاعة قديمة بالمطار، وكان يتولى ذلك إخوان لنا منهم الأخ عبد الغني والشيخ أبو بكر جبريل، وبعد ذلك ذهبوا بالأمتعة إلى موقف الطائرة في المطار الجديد، وهو لا يبعد كثيراً إلا أنه

يشق المشي إليه في شدة الحر في الشمس.

وقد أوقفوا المسافرين في طابور أمام المكان الذي ستقف فيه الطائرة قبل أن تصل، وقبل أن ينزل الركاب القادمون وذلك منهم من أجل الحرص على وقت الطائرة والعاملين فيها، ولذلك لم توقف الطائرة محركاتها بعد النزول.

وهذه عادة لهم بصف الركاب على هيئة طابور أو صف أمام الطائرة قبل سفرها بوقت قد يطول أو يقصر حسب العمل في إعداد الطائرة بالنسبة الى الرحلات الطويلة، أما الرحلات القصيرة مثل رحلتنا فإن القاعدة أن يصف الركاب قبل وقوف الطائرة.

وفي الساعة الثانية عشرة ظهراً أقلعت الطائرة إلى مدينة (كانو) وكانت مليئة بالركاب الذين كان كلهم من الافريقين تقريباً على خلاف القاعدة في شرقي افريقية ووسطها عندما كان الركاب يتألفون في أغلبيتهم من غير الافريقيين، بسبب صعوبة حصول الأفارقة على أجر السفر بالطائرة وقلة حاجة بعضهم إلى السفر.

وقد وصلت مطار (كانو) الدولي بعد (٤٠) دقيقة من الطيران.

في مدينة كانو:

تخاصم أرباب سيارات الأجرة علينا أيهم يحملنا وكانوا يذكرون أجراً هو عشر نيرات ولم نكن نعرف طول المسافة من المطار الى الفندق حتى نقدر الأجرة، ولكن أحدهم تقدم وقال: سيارتي جديدة ومكيفة الهواء وأحملكم بثمان نيرات.

فركبنا معه وطلبنا منه أن يتجه إلى فندق (سنترال) وهو مشهور بأنه من فنادق الدرجة الأولى بل كان أفضل فندق في السابق.

وعندما خرج السائق من منطقة المطارسلم نصف نيرة رسم دخوله بسيارته إلى المطار مع أننى لم أر في المطار منشآت تستحق ذلك بل كل ما فيه من المنشآت هي معتادة أو أقل من المعتادة.

وكان تكييف السيارة ذا معنى في هذه الساعة لأن الجو كان جافًا جدًا يشعر المرء بسمومه مع أن الوقت في النهار كان مايزال مبكرًا على هبوب السموم.

انطلقت السيارة مع شارع جيد السفلتة، فيه كثافة ملحوظة في مرور السيارات وعلى جوانبه عدة إعلانات تجارية مما يدل على المكانة التجارية لهذه المدينة.

وكان أهم ما يلفت أنظارنا نحن سكان المناطق الجافة أن وجدنا الجفاف هو المسيطر، ومظاهره هي السائدة مثل وجود بعض الرمال تحت الرصيف مما يلي الشارع، والغبار الذي تحركه أدنى ريح والحشائش والنباتات الهامدة.

إلا أن مظاهر العمارة والازدهار الاقتصادي هنا أكثر منها في أي بلدة دخلناها من نيجيريا بعد لاجوس فالعمارات المتعددة الأدوار والبيوت الاسمنتية المسقفة بالزنك اللامع موجودة بكثرة مع أننا لا نزال نسير فيما يعتبر خارج المدينة.

ويلفت نظرنا أيضا كثرة الطواقي - جمع طاقية - على رؤس السكان وهي شعار من الشعارات التي اعتاد بعض المسلمين الالتزام

بها، وإن كان بعضهم لا يقصد ذلك ولا يلقي له بالاً وإنما تلقاه عمن هم قبله أو من هم حوله.

كما أن النظافة هنا أكثر منها في (صوكوتو) غير أننا رأينا مارأيناه في بقية المدن النيجيرية من أكوام من القمائم تحرق في الميادين أو الأماكن المتسعة في بعض الشوارع الواسعة.

وهناك مظهر آخر بارز من المظاهر الافريقية وهو أكوام من العروق التي تنبت تحت الأرض وتكون كالأخشاب ويصنعون منها الغذاء وبخاصة العصيدة. فهي هنا كثيرة معروضة مع الباعة على رصيف الشارع.

ونزلنا في فندق دولا (دولا هوتيل) ودولا: كلمة هوساوية ربما كانت عربية الأصل وأنها الدولة لأن حوالي نصف مفردات اللغة الهوساوية هي من العربية .

وقال المسئول في الفندق: إن أجرة الغرفة (أربعون نيرة) لابد من أن تدفعوها مقدمة، وتدفعوا معها خمسا وثلاثين نيرة عن كل ليلة بمثابة تأمين.

ودفع كل واحد منا مائة وخمسين نيرة لليلتين وهي بصرفهم الرسمي في الفنادق تساوي ثلثمائة دولار امريكي، وبالسوق الحرة تساوي مائة وخمسة وخمسين دولاراً والصرف في هذه السوق لا يتم الا خفية، ودون علم من السلطات المسئولة بطبيعة الحال.

ولكن الفندق يستحق أجرته بالتأكيد فهو هادئ جداً ومريح جداً، وقد

بني على طريقة فريدة في البلدان المتخلفة إداريًا مع أنه كتب عليه أنه تابع لاتحاد الفنادق في ولاية (كانو).

فقد بنوه في أرض واسعة من الفضاء الذي تتناثر فيه أشجار الظل وتحيط به مساحة واسعة من الفراغ أبعدت ضوضاء السيارات وغيرها عن أسماع الساكنين فيه.

وبنوه على هيئة وحدات منفردة كل وحدة مؤلفة من ٨ غرف في طابقين وتصل بين تلك الغرف وبين بقية الفندق ممرات مبلطة عليها مظلات.

وفي مقدمة الفندق وقبل الوصول إلى الغرف فور ا لدخول من الاستقبال إليه توجد بركة للسباحة نظيفة بقربها طائفة من الأوروبيين قد استرخوا وهم شبه عراة يعرضون أجسامهم لأشعة هذه الشمس الافريقية يرجون بذلك أن يعوضوها عما فاتها من شمسهم الأوروبية المتحجبة في أكثر فصلي الشتاء والربيع.

استرحنا في هذا الفندق المريح، وتناولنا الغداء في مطعم فيه نظيف وكنا نتعمد أن نأكل فيه ونوقع على حساب المبلغ الذي أخذوه منا بمثابة تأمين، ولعل هذا مما قصدوه من هذا التأمين، إذ المسافر يشعر بأن عليه أن يستنفد هذا التأمين منهم لأنهم إذا ردوه إليه وقد استعد للسفر فإنه لا يدري ما يصنع بالنقود النيجيرية ويفضل عليها الدولار الذي ينفعه في كل البلاد التي يصل إليها بطبيعة الحال.

وبعد الظهر ذهبنا نبحث على أقدامنا عن مكتب الخطوط السعودية فألفيناه غير بعيد من الفندق.

وكانت تذاكرنا مقطوعة على أساس أن يكون خط السير فيها من لاجوس إلى نيروبي فجدة، وذلك يكلفنا وقتاً وجهداً إضافة إلى ما أخذت كينيا تعمل به في الوقت الحاضر من رجوع سفاراتها في البلاد العربية إلى نيروبي للاستئذان منها في منح تأشيرات الدخول إلى المواطنين العرب.

وكان الموظف المسئول في رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة قد رسم خط السير ساهياً عن وجود طيران من مدينة (كانو) هذه مع البلدان العربية.

وجدنا في المكتب باكستانياً أريناه تذاكرنا وطلبنا تغييرها الى كانو/ القاهرة/ الرياض أو كانو/ جدة، فقال: بجفاء هذه تذاكر حكومية لا يمكن تغييرها، فحاولت أن أشرح له الأمر فلم ينصت إليّ، فقلت له: اسمع – ياهذا – نحن موظفون منتدبون من الدولة وقد انتهى عملنا والدولة تدفع لنا مصاريف سفرية يومية كبيرة فإذا لم تغير التذكرة يكون معنى ذلك أنك أخرتنا عن عملنا وبذلك فوّت مصلحة وحملت خزينة الدولة مصاريف سفرية إضافية دون داع، وسوف أحملك مسئولية ذلك، وبخاصة أنني سوف أكتب لك كتاباً رسمياً بهذا المعنى.

فنفض يده وقال: راجعوا مدير السعودية: لأنني أنا مدير التذاكر.

ولم يكن مدير السعودية موجوداً ولكنني عجبت من كون رحلة واحدة في الأسبوع يكون لها هذا العدد من المديرين إضافة إلى عدد من الموظفين. غير أنني عرفت فيما بعد ان هذه الرحلة الواحدة في الأسبوع يقوم بالعمل عليها مكتبان كبيران فيهما مديران مسئولان وموظفون مختلفون.

أحد المديرين هو الأستاذ محمد مصطفى وهو سعودي الجنسية من أصل نيجيري وهو مدير السعودية في قسم منفصل فيه عدة مكاتب، والثاني باكستاني وذلك لأن الخطوط الباكستانية تتعاون مع السعودية فهي تسير الرحلة بطائرة باكستانية بدلاً من الطائرة السعودية لأن الخطوط السعودية تعاني نقصاً في الطائرات الآن.

وفي المساء كان جزء من الفندق صاخباً إلا أنهم احسنوا صنعاً بأن جعلوا مكان الصخب يكاد ينفصل عنه وهو نادٍ ليلي جعلوا بابه خارج الفندق، وكتبوا على مدخل الفندق لافتة تقول: ممنوع على النزلاء أن يستقبلوا ضيوفاً في غرفهم إلاّ بعد أن يحيطوا الإدارة علماً بذلك.

وبذلك سلم النزيل الذي يكون داخل الفندق من مضايقة البغايا بل حتى من مجرد رؤيتهن.

وقد رأيت بعض الأشخاص وبخاصة من ا لأوروبيين يحضرون معهم من الخارج نساء ولكنهم يخبرون الحراس وهما اثنان على المدخل فيسمحون لهن بالدخول معهم.

وقد قصدت إدارة الفندق من هذا الاجراء المحافظة على الأمن من السرقات ونحوها ولم تكن تقصد مكافحة البغاء لأنها تسمح بذلك لمن يخبرها به.

يوم الأحد: ٥ إبريل ١٩٨١م

إلى جامع عبدالله بايرو:

ركبنا مع الأخ (محمد حسن راشد) وهو باكستاني الجنسية أصله من كشمير ومتزوج من مصرية ويعمل في التدريس في كلية الشريعة الإسلامية والقانون هنا مبعوثًا من رئاسة الإفتاء والدعوة في المملكة.

وكان يقود سيارة له بنفسه وهي من طراز (فولكس فاجن) إلا أنها مثله لها علاقات بعدة دول فأصلها الماني كما هو معروف إلا أنها مصنوعة في البرازيل وتجمع أجزاؤها في نيجيريا حسب اتفاق بين نيجيريا والبرازيل وهي صغيرة يقتنيها معظم الأجانب في نيجيريا لرخص ثمنها وعدم استهلاكها الكثير للبنزين إذ قال الشيخ(محمد حسن راشد) إنه اشتراها بثلاثة آلاف نيرة وأنها الآن إذا كانت جديدة تساوي أكثر من ذلك.

خرجنا من أهم شارع في مدينة كانو وهو الذي يقع عليه فندقنا واسمه(شارع محمد مرتلى) والمراد بمرتلى (مرتضى).

وانحرفنا عنه قليلاً فرأينا متجرًا كبيرًا مما يعرف الآن بالسوبر ماركت قالوا: إن الذين يفضلون الشراء منه هم الأوربيون والأجانب من البيض، وأما أهل البلاد فإنهم يفضلون الشراء من أهل البسطات الصغيرة، وهذا المتجر أسعاره غالية بالنسبة إلى المتاجر الصغيرة إلا

أنها مسعرة ويجد المرء فيه أكثر الأشياء التي يطلبها مجموعة في مكان واحد.

ومن الطريف في الأمر أن موقعه غير بعيد من موقع سوق شعبي إفريقي ووصلنا إلى المسجد الجامع الكبير وإذا به تحيط به باحات كبيرة مغروسة بأشجار كثيرة من أشجار النيم ابتغاء الظل، وبين تلك الأشجار بعض أشجار العمبة (المانقو) الضخمة إلا أن عددها قليل وقد فرشوا أرض تلك الباحات برمل أحمر جميل.

وقد سوروه على تلك الساحات الخارجية الواسعة بأسوار من الأسلاك وأخبرونا أنها كلها تمتلئ بالمصلين يوم الجمعة وهذا عجيب لانها أشبه بمصلى العيد عندنا لاتساعها غير أنها مشجرة.

بل الأعجب من ذلك أنهم ذكروا لنا أن الشارع الذي بعدها تصل إليه صفوف المصلين حتى تسد الطريق وتتعطل فيه حركة مرور السيارات.

وفي داخل الساحة طريق مرصوف، ومجرى نظيف معد لتصريف مياه المطر.

أما المسجد فإنه كبير، بل بالغ الكبر غير أنه عريض وغير مستطيل خلاف المساجد في مدينة إبادن وبخاصة جامع مدينة إبادن الذى هو مستطيل.

وأعمدته لها قمم على هيئة طبق وهذا هو الذي فيه مخالف للطراز العربي وإلا فالمسجد كله على طراز عربي واضح أظهرما في ذلك وأوضحه قبته الكبيرة ومناراته العالية علواً متوسطًا إلى جانب كونهم

أحاطوا حائط سطحه بشرفات عربية خالصة الطراز، وقد وضعوا فيه مراوح من الخوص مثلما كنا نفعل في مساجدنا في القديم مع أن المسجد فيه مراوح كهربائية سقفية.

ومحرابه واسع جداً على طريقة أهالي غرب إفريقية في توسعة محاريب المساجد حتى إن هذا المحراب يشبه أن يكون مسجداً صغيراً إلا أن شكله هلالي وليس مربعاً.

وفيه منبر خشبي يتحرك على عجلات.

ومن أغرب ما فيه، وأبعده عن الذوق أنهم وضعوا بين الصفوف أعداداً كبيرة من القرع اليابس الصغير الذى يستعملونه بمثابة الأواني، وقد جعلوا في داخله شيئاً من القش، والغرض من وضعه بين الصفوف هو أن يبصق فيها المصلون.

وهذا شيء تتقزز منه النفس وكان الأولى في هذا العصر الذي توفرت فيه بدائل أفضل لبعض الأشياء المستعملة في القديم أن يحثوا المصلين على أن يحضروا معهم مناديل من الورق أو أن يجهزوا هم مناديل من الورق، ويضعوا لها خارج المسجد أو حتى داخله أوعية تحفظ فيها قبل أن تفرغ وتحرق، وقد التقينا بأحد العاملين في المسجد ورأيناهم كتبوا على كتف ثوبه بالعربية بخيوط حمراء وثوبه أبيض (خادم جامع عبدالله بايرو). مع أنهم كتبوا على مدخل المسجد الرئيسي من الخارج جملة (مسجد الجمعة الثاني) بالعربية.

وفي الساحة الخارجية المشجرة من المسجد كومة من أوراق الأشجار والنفايات قد احترق بعضها دون الآخر. ولا أدري لماذا لم يرفعوها

ويبعدوها بدلاً من أن يحرقوها فيلوث رمادها الفناء، وقد رأينا في ظلال الأشجار في هذه الساحة جماعة من الناس بعضهم مرضى وبعضهم تبدو عليه المسكنة، وربما كان بعضهم من المسافرين الذين لايستطيعون أن يجدوا مكاناً لهم أو لا يريدون ذلك.

فتنة مروي:

رأينا في الشوارع والأرصفة آثار حروق ودخان كثير فأخبرنا مرافقونا أن هذا هو بقايا من آثار المعركة الضخمة التي جرت بين الجيش الاتحادي وبين أتباع داعية ديني إسلامي اسمه (مَرْوى ميتاتسين) ذكروا أنه كان يدعو من بين ما يدعو اليه إلى عدم اطاعة حكومة ا لبلاد، بل يسعى إلى خلعها بالقوة واحلال حكومة إسلامية حسب مفاهيمه وأتباعه عن الإسلام محلها، وأن أتَباعه تحدوا النظام الحكومي، وتدخلوا في شئون الناس، بل قالت الحكومة: إنهم اجبروا بعض الناس على اتباعهم بالقوة وسلبوا أموالاً، واستولوا على ممتلكات ليست لهم.

لذلك أرسلت الحكومة حملة ضخمة من الجيش الاتحادي المدجج بالأسلحة الحديثة واجهها (مَرّوى) وأتباعه بشجاعة ولكن مع أسلحة بدائية لا تصمد أمامها، فكانت النتيجة أن سحقهم الجيش بقوة فقتل مروى، وعدداً كبيرا معه من أتباعه قيل إن عددهم يصل إلى أربعة آلاف.

وبذلك انتهت هذه الحركة في كانو ولكن بقي له أتباع في بعض المدن

النيجيرية وقد انقسم المسلمون حوله إلى فريقين فريق يرى أنه محق وواجب نصره وأن الدولة ظالمة في قتله وأتباعه، وفريق يرى أنه شخص ضال منحرف العقيدة يريد أن يخرج بالإسلام عن طبيعته السمحة إلى التعصب والتشدد.

ولم نستطع أن نجد من يحدد لنا بالضبط ما كان يدعو اليه الرجل، ولكن تبين لنا أن عدداً كبيرا من المسلمين كانوا من المعجبين به وإن لم يكونوا من أهل العلم أو البصيرة في الدين.

في قلب المدينة الحديثة:

ثم مررنا بشوارع جيدة مما يعطي الانطباع الأولى بأن هذه المدينة الشمالية ذات الاغلبية المسلمة من السكان هي أنظف من المدن الكبيرة النيجيرية التي مررنا بها مثل لاجوس وإبادن و(صوكوتو).

والأمر كذلك فهي أكثر تنظيماً وعناية بالشوارع، وأهلها أكثر نظافة، وهي تبدو أقل كثافة في السكان والسيارات بسبب سعة شوارعها وتنظيمها.

ومن الشوارع الرئيسية التي مررنا بها شارع (آدو بايرو رود) أي: آدم بايرو، عليه عدة عمارات كبيرة هامة منها مجمع حكومي وجيه المنظر.

ومررنا بجزء من المدينة القديمة ببيوته الطينية التقليدية في شمال نيجيريا غير أنني رأيتهم هنا قد تأنقوا في بنائها أكثر مما عملوا في المدن الأخري أوالقرى، فتجد الحيطان في كثير من البيوت مستقيمة الاتجاه، متناسقة الأجزاء.

ومررنا بشارع قد تقابل فيه بناءان مختلفان في الاتجاه الفكري وهما (المجلس البريطاني) الذي من المعلوم أنه تديره هيئة ثقافية بريطانية، ومن أهم أهدافه نشر اللغة الأنكليزية في العالم، والثاني المقابل له هو كلية العلوم العربية، وقد كتب عليها اسمها باللغة العربية ظاهراً واضحاً على البعد وتقوم على نشر اللغة العربية بطبيعة الحال.

بيت أمير كانو:

لكل مدينة من مدن نيجيريا الهامة رجلان هامان فيها احدهما هو الحاكم والثاني هو الأمير ووظيفة الحاكم إدارية يعين من يعين فيها على أساس الانتخاب أوالاختيار من الحزب الفائز في الانتخابات.

أما وظيفة الأمير فهى وراثية إذ لابد فيه من أن يكون من الأسرة الحاكمة في شمال نيجيريا أسرة الشيخ عثمان بن فودي، وهي وظيفة شرفية أكثر منها ذات نفوذ رسمي حقيقي إلا أن أهميتها من كون الشعب يعترف بها بل يحافظ عليها، ويعمل على بقائها.

وصلنا إلى قصر الأمير فألفيناه واسعاً جداً ذا أسوار ممتدة لها شرفات ودعائم تسندها لطولها.

وبعض السور مبني من الطين ولكنه غليظ جداً بشكل ملفت للنظر مما يدل على أنه بنى كذلك من أجل الأمن أو مقاومة من قد يهاجمونه، وبعض الطين قد عملوا على طلائه بالاسمنت حتى يبدو في مظهر جديد.

وبجانبه بيوت طينية قديمة ذات عمل متقن تشبه البيوت النجدية

الطينية القديمة فهي – في هذا الأمر – أكثر اتقاناً من البيوت الطينية التي رأيناها في مدينة (صوكوتو)، ولهذه البيوت الطينية ميازيب من الخشب تشبه ما كان عندنا تماماً، إلا أن الذي ليس عندنا من بنائها هو أنهم يدعمون حيطانها بدعائم من الطين من الخارج لئلا تسقط وهذا أمر لم نكن نفعله نحن إلا في الأسوار الطويلة التي قد يكون طول حيطانها يعرضها للسقوط فنضع عليها الدعائم الطينية لتسند جدرانها.

أول مسجد في كانو:

ويقع مقابلاً لقصر الأمير لا يفصل بينهما إلا شارع واحد ويسمونه (سيتي مسجد) كما يقولون إنه أول مسجد جمعة.

ولم نستطع دخوله لأنهم كانوا قد استنفروا طائفة من الناس وأكثرهم من الشبان الطلاب في المدارس وذلك لتنظيف سجاد المسجد، وكانوا يضربونه بالعصى ليبعدوا عنه الغبار، وقد استعانوا بهؤلاء الشبان فجاؤا متطوعين حتى إن الكشافة حضروا أيضاً ليسهموا في المحافظة على النظام.

وكان التجمهر الذى صاحب تنظيف سجاد المسجد قد جذب أطفالاً فضوليين كثيرين وبخاصة أن اليوم هو يوم الأحد العطلة الأسبوعية للمدارس فحضروا عند المسجد لذلك عندما رأونا تجمهورا حولنا بشكل كثيف حتى لا نكاد نستطيع أن نسير بينهم.

وكان الغبار ينبعث من داخل المسجد حول مسرح الضرب الشديد للسجاد.

أما المسجد فإنه بهي المنظر ذو قبة عربية خالصة خضراء اللون ومنارات عربية الطراز أيضا عالية.

ثم سلكنا شارعًا واسعًا على جانبه ميدان فسيح قالوا: إنه مصلى العيد واعترض طريقنا كما اعترض طريق غيرنا من السيارات جنود يفتشون السيارات يبحثون فيها عن الأشياء المسروقة فيما يقولون.

والقصد منه المحافظة على الأمن فيما أخبرونا به.

وسرنا بعده مع شارع آخر فيه سوق يسمى (سوق الفقي) أكثر البنايات التي فيه أنشأها التجار اللبنانيون ولا يزالون يملكون أكثرها وفيه متاجر كبيرة لهم أو هم شركاء فيها، وكانت متاجرهم قبل ذلك أكثر فعملت الحكومة النيجيرية على أن تكون الحوانيت والمتاجر الصغيرة بأيدي النيجيريين.

وقد أخبرنا إخواننا أن أغلبهم من الشيعة اللبنانيين وليسوا من المسيحيين.

ثم انحرفنا من (شارع الفقي) إلى شارع آخر عليه عمارات متعددة الأدوار وقد بدأت مثل هذه العمارات تشيع. بدلاً من البيوت المفردة ذات الطابق الواحد وخصوصًا في قلب المدينة حيث تكون الأرض غالية في العادة.

وتزيد رؤية هذه الشوارع المرء اقتناعًا بأن هذه المدينة من أرقى المدن النيجيرية ومن أكثرها نظامًا وترتيبًا.

حديث الأمن:

والحديث عن المقارنة بين المدن في نيجيريا كثيراً ما يتطرق إلى الحديث عن المقارنة بينها في مجال الأمن لأن الحديث عن السطو والسرقة أصبح يشغل بال كثير من الناس في نيجيريا بصفة عامة.

وقد أجمع الذين سألناهم أو كادوا على أن حالة الأمن في (كانو) هي أحسن منها في لاغوس مع أنهم ذكروا أن اللصوص وقطاع الطرق هم موجودون ونشطون في (كانو) ولكن بالمقارنة بين المدينتين تكون (كانو) أحسن من لاغوس في هذه الناحية بمراحل.

وقد اخبرني المسنون من الإخوة المسلمين أن الحالة الحاضرة التي ساءت فيها حالة الأمن لم تكن عريقة في هذه البلاد النيجيرية الشمالية بل أنها محدثة لم يكونوا يعرفونها ولم يكن آباؤهم وأجدادهم يعرفونها، فكان الأمن عندهم هو الشامل ولا يخاف حتى الغريب منهم من سارق أو منتهب وإذا حدث وسرق سارق منهم وعرفوه فإنهم يحتقرونه ويتركون معاملته حتى يصبح منبوذاً اما في عهد الدولة الإسلامية التي أقامها الشيخ (عثمان دان فودي) وخلفاؤه فإن السارق تقطع يده بعد أن يحكم عليه القاضي الشرعي بذلك.

وقد نوه كثير منهم بأن العصابات التي تقوم الآن بأعمال السلب والنهب في (كانو) معظم أفرادها ليسوا من أهلها الأصلاء وإنما جاؤا من خارجها، وبخاصة من العاصمة لاغوس الذين يكونون قد تمرنوا فيها على هذه الأمور وتمرسوا بها.

هذا مع العلم بأن الحكومة النيجيرية الحاضرة تسعى جادة في مكافحة الجريمة أيا كانت، وعلى رأسها جريمة السرقة والانتهاب التي كثيراً ما يصحبها قتل أو إصابات جسدية وتنزل العقاب الشديد بمن يقبض عليهم متلبسين بها ولكن البلاد واسعة ورجال الإدارة من عناصر مختلفة قد يكون فيهم من لا ضمير له فيتستر على بعض الجناة.

وعندما دخلنا مع بوابة الدخول في الفندق كرر البواب عادته بإعطاء سائق السيارة التي تدخل إلى الفندق بطاقة تحمل رقماً معيناً، وعندما يريد الخروج بسيارته يطالبه البواب الذى عند بوابة الخروج بإبرازها ويأخذها منه.

وهذا كله من الفندق من باب المحافظة على السيارات عن السرقة لئلا يستغل بعض لصوص السيارات غياب أصحاب السيارات الواقفة فيسرقونها ويخرجون بها من الفندق.

وهذه عادة استمرت حتى بالنسبة للسيارة التي لا يريد صاحبها أن يغادرها بل يقف بها مجرد وقوف أو حتى يمر بها داخل الفندق مجرد مرور.

يوم الاثنين ٦ إبريل ١٩٨١م

في القنصلية السعودية:

القنصل السعودي في (كانو) هو الأستاذ/ مصطفى نصر الدين وهو صديق قديم كنت قد التقيت به قديما في مقدشو في الصومال وكان قائما بأعمال السفارة في ذلك الوقت هناك.

وقد قضيت وقتاً في القنصلية كان ثميناً إذ سمعت من الأستاذ/ مصطفى وجهة نظره في أشياء كثيرة تهمني معرفتها في هذه البلاد على ضوء خبرته واتصالاته بالشخصيات الكبيرة فيها، وكتبت إليه كتابا رسمياً حول تغيير تذاكرنا راجياً إحالته إلى مدير مكتب الخطوط السعودية، من أجل اعتماد ذلك.

وقد ذهبت إلى مكتب السعودية والتقيت بالأستاذ محمد مصطفى المسئول فيه ومن هناك ذهبنا إلى مكتب الطيران المصري المجاور وحجزوا لي بعد تردد لأن المقاعد في الدرجة الأولى مشغولة.

وتكفل المكتب بتغيير خط التذكرة ليصبح من كانو إلى القاهرة فالرياض.

جولة في كانو:

بدأت هذه الجولة في الخامسة عصراً على سيارة القنصلية وسائقها يعرف العربية والهوساوية اللغة الرئيسية في هذه المدينة بل هذه المنطقة من شمال نيجيريا.

وكان مما يلفت النظر في وسط المدينة ذي السكان الذين هم من صميم الشعب منظر راكبي الدراجات الهوائية بثيابهم الفضفاضة، وكنا قد تعودنا في بلادنا وفي البلاد الأخرى أن نرى الراكبين على أمثال هذه الدراجات يغلب عليهم أن يكونوا من الشباب وأن تكون ثيابهم مختصرة خفيفة حتى لا تعوق حركاتهم عند قيادة الدراجة.

وهذه الدراجات موجودة وكذلك الدراجات النارية فهى موجودة بكثرة ويمكن القول أن النيجيريين يعتبرون من أكثر البلدان الافريقية التى رأيتها في شرقي افريقية وغربها استعمالاً وركوباً للدراجات بنوعيها الهوائى والناري.

كما يلاحظ هنا أن السيارات رغم كثرتها فإنها أكثر هدوًا من لاجوس وإبادن فهى لا تطلق أبواقها إلا عند الحاجة، ولا يتضايق الشخص منها في هذا المجال.

كما يلاحظ المرء أن السائقين يعامل بعضهم بعضا باحترام أكثر.

ومررنا بالمكان الذي حدثت فيه المعركة بين الجيش النيجيري وبين مروي وجماعته وذلك من ناحية أخرى وقد بدأت المعركة من جانب سينما تسمى (سينمابلازا).

وفي وسط المدينة (الشعبية) يلاحظ المرء أن الملابس الافرنجية قليلة فيها، والملابس السائدة هي النيجيرية الواسعة بل الفضفاضة أو نوع آخر قريب من الزي الباكستاني فهو يتألف من قميص طويل أوسع من القميص العربي قليلاً وأقصر منه كثيراً فهو لا يصل إلى الركبة وإنما يقف أسفله فوق ذلك، ويكون تحته سروال معتدل السعة يضرب إلى الكعبين، وعلى الرأس طاقية، وقد بدأ هذا اللباس يشيع وبخاصة عند الشباب من المسلمين الذين لا يرغبون في ارتداء الزي ا لواسع.

ومررنا بمستشفى كبير اسمه (مستشفى مرتلي محمد) أي: مرتضى محمد والعلاج فيه بالمجان.

حارة بيرني:

ثم مررنا بحي اسمه حي بيرني شعبي متوسط في نظافته فهو أكثر نظافة من الأحياء الشعبية في لاجوس، وأقل نظافة من الأحياء الحديثة في كانو هذه أو في كادونا.

بيوته مبنية بالطين، ومطلية بالجص، وأغلبها قد اعتنى أهلها بتحسينها بمعنى أنهم قد يراعون فيها الناحية الفنية بخلاف البيوت في القرى، أو الأحياء الشعبية في خارج المدينة، والنساء فيه متسترات وليس معنى ذلك أنهن متحجبات، فالحجاب – كما قدمته – لا يوجد فيما رأيته أو علمته في جميع نيجيريا، ولكن التستر أن يكون الرأس مستوراً ويكون الصدر أكثره مستوراً أيضاً، أما السيقان فإن لباس النساء عندهم يستر أعلى الرجلين والسكان هنا أغلبهم من الحوس

(الهوسا) وفيهم قليل من (الفولاتيين)، الذي (تهوسوا) أي أصبحوا كالهوسا، وكادوا ينسون لغتهم الأصلية لغة (الفلاته)، أو هم قد نسوها.

في سوق شعبي:

من لطيف ما شاهدناه في هذا السوق أول ما دخلناه تحف من القرع اليابس المنقوش بنقوش تزيينة وأغلبه صغير الحجم، ويعلق في المنازل أو يوضع في الأرفف.

ويسمع المرء الأغاني المحلية (الهوساوية) وهي تشبه في مظهرها الصوتي العام الأغاني السودانية ولذلك تجد القوم يجيدون الأغاني السودانية، ويكررون بعضها، وإن كانوا لا يعرفون اللغة العربية.

وقد أخبرني عدد من الإخوان أن أغانيهم ليست مثلما هي في البلاد العربية أغانٍ في مجملها عاطفية لا تتحدث إلا عن الحب، وإنما أغانيهم تتضمن شيئًا قليلا من ذلك ويجئ معه مدائح العظماء والأمراء، ثم الأغاني الدينية والإبتهالات.

وقد سمعت عدة مرات في عدة مدن شمالية أغاني تتكلم بجمل دينية مثل لا إله إلا الله أو محمد رسول الله، ولقد لفت نظري مرة أغنية من هذا النوع كان مكبر الصوت يذيعها في حانة في (فندق حمدالله) في مدينة كادونا، فلم استسغ ذلك إذ ذلك الجو ليس بالذي يصلح لإذاعة تلك الأغنية الدينية.

وهم مثل البلاد العربية يدير الذي يبيع (الأسطوانات) بعض ما لديه بصوت عال حتى يلفت أسماع الناس إلى بضاعته، وقد يكون بقربه

آخر مثله فيفعل فعله، فتكون النتيجة الضوضاء المزعجة.

وفي داخل هذا السوق تكرر ذلك الشيء الغريب جداً وهو رؤية قطع مختلفة من جلود ا لبقر المشوية المعدة للأكل - فيمكن أن يشتريها الشخص ويأكلها، وقالوا: إن طائفة واسعة من الشعب تفضل أكل الجلود المشوية.

وأول ما تفعله النار بالجلد أن تأكل شعره بطبيعة الحال.

وكذلك الأكارع - جمع كراع - وهي هنا أكارع البقر الكبير الحجم ولحم رؤس من رؤس البقر قد كسرت ولفقت في قطع مختلفة من الرأس.

ومنظرها وعليها أفواج الذباب ما تتقزز منه النفس لا سيما اذا كان بجوارها لحم نيء ربما كانت له رائحة لأن هناك بعض اللحم الذي يفضله بعض الناس قديداً متغير الرائحة على كونه طرياً طازجاً.

وهذا ليس بغريب على بعض الشعوب فهناك إخواننا المصريون الذي يفضلون أكل الفسيخ وهو السمك المنتن الملح في عيد شم ا لنسيم، ونحن في بلادنا كنا نأكل (القفر) وهو القديد.

ورأيتهم يبيعون النخالة بشكل موسع يقولون: ان الناس يشترونها علفاً للماشية.

صيدلية شعبية:

هذه التسمية غير دقيقة بل ربما كانت غير صحيحة من كل وجه، وانما المراد التعبير عن أقرب تسمية صحيحة تطابق معناها.

تلك في حانوت رجل كبير السن، كل ما عنده عجيب إذْ هو يكاد يكون أحجارًا، وبعض الأخشاب الصغيرة، ولما سألت عنه إخواني قالوا: إن الذي عنده كله أدوية شعبية من الأحجار والأشجار.

واللطيف أن بعض الأدوية عنده يعالج بها الإنسان، وبعضها يكون علاجًا للحيوان. فهناك - مثلاً - أحجار تدق وتداوى بها الغنم، وأخرى تستعمل دواء للأبقار وطين أبيض يقول: إن الغنم والبقر تسقى منه عند ولادتها فيكون دواء ناجعًا ضد الالتهابات والتقرحات التي قد تصيبها بعد الولادة.

وهناك أحجار كأحجار الملح إلا أنها ليست من ملح الطعام قال: إنها يعالج بها المرضى من الناس.

وصيدلية أعشاب:

وغير بعيد من هذا الحانوت رأيت آخر كل الذي عنده من الأعشاب ومنها عشب عرفته أنا وزميلي الشيخ عبدالعزيز الربيعان وقلت له: انه لا يصح قياسًا أن يوجد هنا لأنه من نباتات الصحراء العربية. فلما سألنا عنه صاحبه قال: إنه من الجزائر- وهو ا لشيح - وعنده عروق من قشور الزنجبيل يتداوى بها وهي ليست بالزنجبيل المعروف لنا الذي هو من العروق أيضًا، وفلفل أسود، من نوع غير الذي نعرفه فهو هنا ذو حب ليس بالغ السواد بل يضرب إلى البياض وصغير الحجم، ونوع ضخم نادر من الفلفل الأدهم الحار أو (الشطة) يابسة لها حب أسود يابس أيضًا.

وتركنا جزءاً من هذا السوق الشعبي إلى أجزاء آخرى فتجاوزنا نهراً جارياً بل سريع الجريان من مياه المجاري السوداء المكشوفة. غير أنهم هنا أقاموا ممراً صغيرا فوقه من الخشب للمشاة، ولا أدري لماذا لم يسقفوه.

وفي هذا الجزء الذي انتقلنا إليه وقفنا عند دكان عطار معظم الموجود عنده ذو أسماء عربية خالصة مثل المر والمصطكى وكذلك عنده الكحل الاثمد الحجري.

ووقفنا عند بائعة تبيع صابونا وطني الصنع بل محلياً أسود اللون، وبجانبه تبيع قوارير فيها زيت النخيل: نخيل الزيت. وأنواعاً من الفلفل الحار قَلّ أن توجد مجتمعه إلا في الهند لأن الهند لا يأكلون طعامهم بدون الفلفل وأهل هذه البلاد يدخلون الفلفل الحار في اطعمتهم الوطنية، وبخاصة ما يكون منها نوعا واحداً وهي غالب أطعمتهم الشعبية مثل الكسافا والعصيدة من الدخن والذرة فإنه لابد له من الفلفل حتى يساعد على تفتيته وهضمه بسبب حث الفلفل غشاء المعدة على زيادة الإفراز.

وفي هذا السوق حوانيت لبيع المصنوعات الجلدية التقليدية الغالية مثل الحقائب ومحافظ الجيب من جلود الحيات والنمور والتماسيح، وهي أرخص كثيراً من مثيلاتها عند الباعة الذين يكونون بالقرب من الفنادق الرئيسية التي يسكن فيها الأجانب.

وقد اشتريت حقيبة نسائية جيدة من جلد حية باثنتي عشرة نيرة.

وقد قضينا وقتاً ممتعاً في هذه الأسواق الشعبية وبين قوم من الإخوة

المسلمين الذين رأيناهم يحيوننا ويحترموننا، وفي بعض الباعة نسبة ممن يعرفون شيئًا قليلا أو بضع كلمات من اللغة العربية يكونون قد تعلموها في المدرسة الدينية أو في المساجد على أيدي المشايخ.

ولم يكن يكدر من أمر الاستمتاع بهذه الجولة الاّ وجود ذباب كثير مصدره عدم النظافة التامة في الشوارع وبخاصة في أماكن القاء الفضلات، وبيع المأكولات. كما أن المار فيها لا يعدم رائحة كريهة قد تصافح أنفه بغير لطف فتكدر صفوه وتعكر استمتاعه.

وعند العودة إلى السيارة اعطينا شخصًا كان قد تعهد أن يحافظ على سيارتنا في الموقف كما يحافظ على السيارات الأخرى مقابل أجر غير مسمى دفعناه له وهو (٢٠) كوبا ويساوي بالسوق الحر ريالاً سعوديًا واحدًا.

وفي السيارة شاهدنا ونحن في طريق العودة في بعض الأماكن الواسعة من هذا الحي أغنامًا من الضأن الأبيض الكبيرة، وماعزًا أحمر كبيرًا أيضًا، وشيئًا يدل على أهمية الوقود بالحطب عندهم رغم كون البلاد من الدول المصدرة للنفط وذلك في مقادير متفرقة من هذا الحطب المعد للبيع وبعضه على دواب كانت تنقله من مكان إلى آخر.

ورأينا مجرى للمياه القذرة وعليه رجل كبير السن يبول فوقه، ورغم ما في البول والناس يرون من بشاعة ظاهرة فإن كونه على مجرى قذر، وليس في ميدان أو رصيف مما يهون من بشاعته.

وخرجنا من كانو:

مع بوابة كبيرة لاتزال باقية واضحة المعالم وكانت متصلة بسور طيني قديم كان يحيط بمدينة كانو القديمة ويسمون هذه البوابة (كوفو نصار راوي).

وهذه البوابة تفضي إلى ضواحي المدينة التي نمت بعد ذلك السور بطبيعة الحال ولا يحس بها المرء في هذه الجهة إلا إذا مر على هذه البوابة لأن معظم أجزاء سور (كانو) من هذه الجهة قد انمحى لكونه طينيا وكونه قد اخترقته شوارع واعترضته بيوت جديدة.

فدخلنا مع (شارع مرتلي محمد) الذي يقع عليه فندقنا (دولا هوتيل) وهو أطول شارع في مدينة (كانو).

ومرتلي محمد الذي نسب إليه هذا الشارع هو أحد الزعماء المسلمين المخلصين للإسلام وقالوا لي: إنه كان حاكماً في كانو وقد قتل شهيداً – رحمه الله – فأكرمه أهل كانو بأن اطلقوا اسمه على عدة أشياء هامة منها هذا الشارع الطويل ومستشفى كبير، ومرتلي في اسمه محرفة عن الاسم العربي مرتضى فأصل تسميته العربية (مرتضى محمد).

يوم الثلاثاء: ٧ إبريل ١٩٨١م

كلية الشريعة الإسلامية والقانون:

هي كلية حكومية تابعة لادارة التعليم العالي في ولاية (كانو) تقع في حي شالاوي خارج المدينة القديمة إلى جهة الغرب الجنوبي.

خرجنا من الفندق مبكرين حتى تجاوزنا المدينة الجديدة، وصرنا نباري سوراً لها قديماً من الخارج، ويحف بذلك السور من الجهة الخارجية أيضا بقايا خندق قديم استعمل الأن مصرفاً للمياه المستعملة ورأيت بعضهم استغله في ضرب اللبن أي خلط الطين وجعله لبناً في قوالب يجففونها في الشمس ثم تستعمل للبناء في البيوت الطينية.

ولم يمتد عمران المدينة من هذه الجهة ربما كان ذلك مقصوداً للمحافظة على هذا السور الطيني العجيب الذي ذكرني بأسوار الطين في أبنيتنا القديمة، فإذا كانوا قصدوا ذلك فإنهم أحسنوا صنعاً لأنه آثار إذا لم يحافظ عليها لا يمكن تصورها لأنه لا يعمل الآن ما يماثلها.

وزاد من روعة المنظر لهذا السور الطيني الأثري وللخندق القريب منه وجود أشجار صحراوية خضر، وأشجار شبه صحراوية متفرقة قد حافظوا عليها وحالوا دون قطعها وإلا فإن المظنون أنها بهذا القرب من المدينة لابد أن تغري القاطعين الذين يريدونها للحطب أو غيره.

وهذا المنظر يكاد ينقلك من إفريقية إلى الشام أو العراق فيخيل إليك أنك لست في إفريقية الخضراء وإنما أنت في البلدان العربية.

دخلنا الكلية وتقع في وسط فناء خارجي فسيح ظللنا نمشي فيه برهة وليس فيه عود أخضر نامٍ بطبيعته وإنما جعلوا عدة خطوط غرسوها بنباتات الزينة وبالأزهار، ويسقونها الماء سقيًا.

وكان أبرز ما في الكلية عند دخولها يذكرك بأنك في البلاد العربية من ذلك ما ذكرته من الجفاف، ولافتات عربية بخط نسخي جميل وكأنها لا تعرف إلا العربية.

مع انها تدرس اللغة الهوساوية وآدابها، وهي اللغة التي يقال إن مجموع الذين يتكلمون بها يبلغ أربعين مليونًا.

وأظن أنهم أكثر من ذلك لأنهم منتشرون في عدة دول من غرب إفريقية غير نيجيريا الشمالية التي فيها أغلبيتهم.

وكان الهواء صحراويًا صباحيًا جافًا خفيف الوقع على النفس، مما جعله متعة لنا.

وزاد الاستمتاع به والابتهاج في نفوسنا ما استقبلنا به إخواننا في الدين والعلم من أساتذة الكلية وعلى رأسهم عميدها الشيخ (آدم محمد قوارم) وفي أولئك المدرسين سودانيون ومصري ومحمد حسن راشد الباكستاني الذي تدفع المملكة العربية السعودية مرتبه وأخ عراقي.

وعلى ذكر العراق نقول إن عميد الكلية قد ذكروا لنا أنه متخرج في بغداد.

وبهذه المناسبة أخبرونا أن المدرسين يبلغ عددهم أربعة عشر فيهم ثمانية نيجيريون وستة من غيرهم.

وقد جلسنا في مكتب العميد بين ترحيبه وبشاشته وترحيب إخواننا الآخرين وبشاشتهم ومكتبه مثل باقي غرف الكلية ومكاتبها الادارية مؤثث تأثيثًا حديثًا نظيفًا يدل على عدم البخل على هذه الكلية التي هي بمثابة كلية متوسطة إذ الدراسة فيها هي لمدة ثلاث سنوات بعد الثانوية.

وقد أسفنا لكون الطلبة الآن في أجازة ولم نتمكن من مشاهدة سير الدراسة فيها.

وهي مبنية في وسط هذه الافنية الواسعة في جو دراسي جميل قد نثرت فيه المكاتب وقاعات الدراسة نثرًا من طابق أرضي واحد.

وقد قلت لهم: أنني أتمنى أن تصبح هذه الكلية الفنية نواة لجامعة إسلامية في هذا الجزء الغالي من الوطن الإسلامي، وهو شمال نيجيريا، وقلت لهم: إن هذا المكان الفسيح الجيد للدراسة هو مكان مناسب لنواة الجامعة الإسلامية، فقالوا: نرجو ذلك، ولقد حصلنا من الحكومة على أرض أفسح من هذه وأكثر ملائمة للجامعة في موضع آخر ربما يكون أفضل من هذا.

وفي ختام الزيارة تفقدنا المكتبة وهي حديثة لا تتناسب محتوياتها مع بناء هذه الكلية، والاستعداد الكبير فيها، فالكتب فيها قليلة، وقد أرونا كتبًا عدة تلقتها المكتبة من الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

خرجنا من (كلية الشريعة الإسلامية والقانون) عائدين إلى قلب المدينة وصرنا نباري سورها التاريخي ذا الخندق.. فأفضى بنا الطريق إلى باب كان على السور القديم وهو من الطين أيضًا إلا انه مطلى بالاسمنت محافظة على بقائه وله شرفات عربية الطراز عالية بيض.

ومررنا داخل السور بأنموذج لبيت قديم جدًا يبنى ضيقًا كالمحراب الواقف من الطين المطلي بالبياض لا يكاد يتسع لأكثر من شخص واحد، وقالوا: إن مثل هذه البيوت أو على الأدق: الغرف كانت شائعة في القديم، وقلّت الآن.

وأخبرونا أن محمد عمر مروي رأس الفتنة التي حدثت في مدينة كانو كان يصنع لاتباعه مثل هذه البيوت التي هي بيوت إفريقية تقليدية.

ولفت نظرنا ونحن نسير في أحد الشوارع في طرف المدينة رجل يسوق حمارًا له عليه (وقر) وهو شبيه بالخرج أو الوعاء الذي يجعل فيه حمل الحمار من الطين والحصا والسبب في ذلك أنه مماثل تمامًا لما كان يستعمل في بلادنا في القديم.

وقد حمل عليه صاحبه النيجيري حصا صغارًا.

مركز الدراسات الإسلامية:

وهو حكومي قال مديره الشيخ (إبراهيم بيللو رنجم) إن مهمته الاشراف على المدارس الأهلية الإسلامية، ومساعدتها، وتشمل تلك المدارس التي يسمونها المدارس القرآنية، والمدراس الدينية الأهلية، وقال: إنهم يدفعون للمدرسة الواحدة بعد توفر شروط معينة مساعدة في

حدود ألفي نيرة لكل فصل من فصول الدراسة فيها، وقال: إننا نحاول أن نساعد على رسم مناهج الدراسة في تلك المدارس، واننا نحاول أن نجعلها في نظام واحد.

وقال: إن المدرسة التي لا تتوفر فيها الشروط التي نضعها لا نساعدها ولكننا لا نمنعها من الوجود أو الاستمرار في التدريس.

وقال: إننا نشرف الآن على حوالي (٥٥٠) مدرسة من كل الأنواع.

وقال: إن في مدينة (كانو) وحدها من تلك المدارس (٩٤).

وعند الانصراف مررنا بمستشفى للموظفين الكبار أخبرونا بأن تعريف الموظف الكبير عندهم هو من يكون في المرتبة الثامنة فما كان أعلى منها. وإن المتخرج من الكليات المعتادة أي الحاصل على (الليسانس) أو (البكالوريوس) يعين عندهم في المرتبة الثامنة.

وقالوا: إن سلم الوظائف عندهم ينتهي بالسادسة عشرة.

فكرة لوزارة الخارجية السعودية:

وهي ليست فكرة مبتكرة، بل ربما كانت مكررة، ولكن هذا لا يمنع من عرضها على ضوء المشاهدة والاحساس بالواجب أو من إعادة عرضها على الأدق في ضوء الرغبة الصادقة في مساعدة ذوي الحاجات من الإخوة المسلمين وفي ضوء القدرة المالية التي منحها الله سبحانه وتعالى لبلادنا.

فقد ذهبت ظهراً إلى القنصلية السعودية هذا اليوم، ورأيت طوائف من إخواننا النيجيريين المراجعين للقنصلية وهم وقوف خارج القنصلية،

او جلوس على أرضها في جو مفتوح فيه ظل ولكن ليس فيه مراوح فضلاً عن المكيفات أو الماء البارد.

وذكرت ذلك للأستاذ مصطفى نصر الدين القنصل، فقال: إن كثيراً من هؤلاء ليسوا من أرباب الحاجات الحقيقية وإنما جاؤا لمرافقة أصحاب الحاجات، والسماح للجميع بدخول القنصلية واللبث فيها كل الوقت الذي يريدونه مما يربك الموظفين الذين هم قليلو العدد وينجزون أعمالاً كثيرة جداً حتى إن معدل الجوازات التي يمنحون عليها التأشيرة يزيد على مائة وخمسين جوازاً في اليوم في الوقت الحاضر الذي هو ليس وقت موسم من المواسم الكبيرة.

وقلت له: لماذا لا تقترح على وزارة الخارجية بناء قاعة انتظار في كل قنصلية وسفارة تكون كبيرة ومتسعة لأكثر المراجعين وتكون فيها وسائل تبريد، وماء بارد إذا اقتضى الأمر، على أن يدقق الحاجب المختص بها فلا يسمح باللبث فيها إلا لذوي الحاجات التي تيقن منها.

واحتجنا إلى صرف بعض الدولارات فقال لنا الذي يصرفها إذا كان عندكم ريالات سعودية فنحن نشتريها، وقد بعناها عليه بالفعل بسعر أعلى وأحسن لنا من الدولار.

وذكرني ذلك ببلاد أخرى تشتري الريال السعودي وتحرص عليه كما تحرص على الدولار ومن تلك البلاد تايلند في الشرق ومصر في الغرب.

إلى ريف كانو:

طلبت من القنصلية السعودية أن توفر لي سيارة ودليلاً يخرج بي إلى مسافة في ريف (كانو) تكون بمثابة الانموذج، وقد فضلت الناحية التي هي في الريف الحقيقي، أو لنقل في الريف البري لأن ذلك يعطي صورة أوضح لطبيعة الأرض التي لم يمسها التغيير في تلك ا لبلاد.

فكان الخروج في الخامسة مساء بعد أن كان حر القائلة قد ولى، وقد بدأ السموم يبرد مع أن القائلة والسموم في هذه ا لبلاد هذه الأيام ليستا من الشدة بمثل ما هما عليه في بلادنا بل ولا قريباً من ذلك.

وهذا الطريق يشتهر بطريق (مايند قري) وهي مدينة واقعة في ولاية (برنو) التي يسكنها البرنو، وهم جنس من الأجناس المشهورة في نيجيريا.

وكنت قد عزمت على زيارة هذه الولاية ولم يثنني عن ذلك الا عدم موافقة زميليّ الذين طالت عليهما الرحلة مع أن (برنو) تستحق الرحلة فهي ولاية تاريخية ذكرت في الكتب العربية القديمة، وتردد ذكرها كثيراً في أخبار الحروب التي رافقت تأسيس دولة الشيخ عثمان فودي. ولدينا في بلادنا وخاصة في الحجاز أعداد من أهلها أصبح بعضهم سعوديين ولكنهم لا يزالون يعرفون بالبرنو، ومنهم بعض العلماء في الدين وبعض طلبة العلم القدماء.

و(مايند قري) التي اشتهر هذا الطريق بها هي بعيدة قالوا: أنها تبعد أكثر من أربعمائة كيلومتر.

وليس هدفنا الوصول إليها لأن الوقت لا يسمح لنا بذلك.

انطلقنا مع ضاحية جميلة من ضواحي مدينة (كانو).

ثم مررنا بسوق شعبي صغير في حي شعبي ربما كان أصله قرية خارجة عن مدينة (كانو) فلحقت بها عمارتها.

ثم خرجنا من المدينة إلى ضاحية جميلة في جهة منها خزانات وقود، وتقابلها محطة للكهرباء قالوا لنا: إنها تأتي اليهم من جهة مدينة لاجوس.

ثم دخلنا في الريف مع خط اسفلتي جميل، والريف ذو بيوت طينية في أرض سهلة ليس فيها رواب ولا آكام. بل ليست فيها أماكن منخفضة أو مرتفعة أصلاً.

وهي تشبه أن تكون صحراوية غير أن أشجارها الصحراوية كثيرة، مع أن أرضها جافة جفافا تامًا ليس فيها عود أخضر إلا أنها كلها فيها آثار الزراعة في موسم الأمطار.

ومع أن موسم الأمطار بعيد عن هذا الوقت نوعًا ما، وليس كما عليه الحال في جنوب البلاد في لاجوس وإبادن حيث يبدأ موسم الأمطار في العادة في شهر إبريل، لقد رأينا بعضهم حرثوا الأرض استعدادًا لحلول موسم الامطار، ولا ادري أيضعون البذار الآن أم يتريثون في وضعه حتى ذلك الحين.

و الأرض فيما يبدو لنا من أمرها خصبة فليس فيها رمال ظاهرة ولا أرض صخرية، ولم أر عندهم أية وسيلة من وسائل الري لامن آلات

رفع المياه، ولا من الآبار التي تسقي الزرع.

والأشجار الموجودة كلها صحراوية إلا أن أغلبها أخضر ويوجد بينها أشجار قليلة من أشجار النيم المغروسة بطبيعة الحال لأنها ليست من الأشجار الصحراوية.

ولا يعدم المرء أن يرى بعض الآثار من موسم الزراعة الماضي في هذه الأرض من ذلك بقايا ذرة حصيدة كانوا قد رفعوها في فروع الاشجار الصحراوية الكبيرة من أجل منع المواشي من الوصول إليها ومن أجل وقايتها من أن تتعفن من مياه الأمطار.

المطينة بجانب القرية:

المطينة في عاميتنا النجدية هي البقعة من الأرض يؤخذ منها الطين الذي تبنى منه البيوت وهو اشتقاق صحيح في الفصحى، وقد انتهي أمر (المطينة) في بلادنا بعد أن انتهى البناء بالطين، وحل محله البناء بالاسمنت.

لذلك كان وجود هذه المطينة على هيئة حفرة كبيرة من الأرض ناتجة عن أخذ الطين منها لبناء بيوت قرية ذات بيوت طينية أمرًا ملفتًا للنظر عندنا.

ولا يعدم الناظر لهذه القرية الطينية أن يجد فيها بيوتًا قليلة من القش ذات سقوف (قشية) هرمية الشكل. كما يشاهد أحواش بعض البيوت التي هي – أي الأحواش – من الأعواد أو أغصان الشجر اليابس.

ثم مررنا بقرية أخرى بجانبها (مطينتها) أيضا تسمى (لادى سكولو)

قال لنا مرافقنا الذي يعرف الهوساوية: ان معناها يوم الأحد لأن فيها سوقا يقام في يوم الأحد.

وقرب هذه القرية أشجار قليلة من أشجار العمبة (المانقو) قد بدأت بالاثمار. ولا أدري لماذا لا يتوسعون في زراعتها مادامت تغل غلة جيدة، ولا تحتاج إذا كبرت لسقي كما شاهدناها وتجاوزناها الى أرض خالية، ولكنها كلها كانت مزروعة لا تزال فيها آثار الزراعة.

وبعدها قرية (قندو) ذات بيوت من الطين أيضاً وفيها مواش كثيرة من الماعز والضأن وانطلق منها الطريق مع أراض، بهية المنظر، حمراء التربة، عامرة بالأشجار الصحراوية، فيها آثار الزراعة مستوية ليس فيها أي آثر لوهاد ولا نجاد، بل هي أحسن أرض للزراعة ورعي الماشية.

وهي كذلك أحسن أرض تختزن مياه الأمطار إذا أصابتها لأن المياه تظل فيها ولا تذهب منها إلي أماكن منخفضة أو تجرف تربتها.

ومن آثار أهمية الزراعة في هذه المناطق في مواسم الأمطار وجود مخازن للحاصلات الزراعية فيها تكون من الطين ضيقة كأنها خزانة الملابس الضيقة وتسقف بالقش على شكل هرمي وذلك بغية أن تنزلق عنها الأمطار عند سقوطها.

ويقولون: إن هذه الأرض تزرع فيها الذرة والدخن والفاصوليا والكسافا وهي ذات العروق التي تكون في الأرض يستخرجونها ويصنعون منها طعاماً شعبياً لهم.

ورأينا منطقة وحيدة صغيرة خضراء خضرة زراعة وليست خضرة طبيعية فعرفنا أنها محطة حكومية للتجارب الزراعية، وقد قطعت الحكومة الأشجار الصحراوية من الأرض، وركبت في الحقل آلات سقي المزروعات بطريقة الرش.

ومن مشاهد هذا الريف رجل راكب حصاناً، وامرأتان تحملان على رأسيهما حزمتين من الحطب، وأكوام من حطب من اخشاب مكسرة معد للبيع، وبيت طيني واسع سقفه من القش، وشجرة كبيرة بجانب ذلك البيت مقطوعة ربما ليستعملها صاحبه في الوقود.

وقد بلغنا الآن مسافة سبعين كيلا من مدينة (كانو).

ومرور السيارات ليس كثيفاً ولكنه موجود ولم نشاهد في هذا الطريق حادثاً أو آثار حادث إلا حادث سيارة كبيرة قد صدمت سيارة نقل صغيرة فقطعتها إرباً، وذلك خلاف ما عليه الحال في الطريق ما بين مدينتي إبادن ولاجوس حيث لا يتجاوز المرء بضعة كيلات حتى يبصر آثاراً جديدة لحادث جديد، وربما كان ذلك بسبب كثافة مرور السيارات بين تلك المدينتين الكبيرتين.

على نهر كوجي:

وبعضهم يسميه (كوجي اودل) و(أودل) بلدة بجانبه نسبوه إليها، أما نهر كوجي فإن عليه جسراً حديثاً جيد البناء على جانبيه ممرات للمشاة والدواب.

وتقع بلدة (اودل) بعد النهر مباشرة على ضفته ا لشرقية.

عندما وقفنا في هذه البلدة كان بقربنا شواء يشوي لحماً على أسياخ، وبجانبه رمل أبيض استخرجوه من قاع النهر ويبيعونه للبناء، وبائع للحصر المنقوشة، وشياه بيض ضخمة وأسماك عند رجل يقلي منها ويبيع للمارة ورجل آخر عنده دجاج مذبوح يعده للطبخ أو الشيّ.

والحقيقة أن هذه مظاهر لكثرة وجود هذه الأشياء في هذه المنطقة الشمالية وكلها مما تنتجه الولاية نفسها.

ثم انصرفنا إلي ضفة النهر فأوقفنا السيارة بقربه، وكان الجو جميلاً قد ذهب سمومه وليس فيه من الرطوبة شيء والمنظر بديع على ضفة هذا النهر الجاري غير أن مما يكدر ذلك وجود مجموعات من الرجال يسبحون فيه، وبعضهم يغتسل منه وهم جميعاً عراة تماماً كيوم ولدتهم أمهاتهم، والناس الذي على ضفة النهر يتمشون أو يغسلون سياراتهم يرونهم فلا يبالي أحد من الطرفين بأحد.

والنهر متوسط السعة، ومع ذلك فان كميات المياه المتدافعة فيه كبيرة وهو يجري بسرعة، وربما كانت كثرة مياهه بسبب وقوع أمطار على منابعه التي يفترض أن تكون جنوباً لأنه يجري من الجنوب إلى الشمال في هذه البقعة التي نشاهده منها الآن.

ومن الغريب المخيب للآمال أن شطي النهر مغبران ليس فيهما زراعة، وذلك فيما أبصرناه منهما بل هما رمل ملتبد يابس فيه بقايا زراعة من الزراعة على المطر.

مع أن بالإمكان غرسه بالأشجار الظليلة المثمرة مثل أشجار المانقو

(العمبة) فقد رأينا منها شجرة واحدة لا يتصور المرء منا وهو في بلاده أنها تكون هكذا من الكبر والاتساع ونضارة الورق، وقد حملت فأكثرت ولكنه لم ينضج بعد، ولا أبالغ إذا قلت: إن الذي فيها من الثمار لا تستطيع سيارة شحن ضخمة ان تحملة او تستوعبه.

وإنما يوجد في أماكن الشطين فيه أشجار صحراوية متفرقة خضراء نامية، لا ينتفع منها بغير الحطب وربما أكلت المواشي شيئًا من أوراقها الخضر.

والخلاصة أن هذا النهر يعطي انطباعًا سريعًا أعطته معه الأرض السهلة الخصبة خلاصته أن هذه الأرض أرض خصبة معطاء عند شعب لا يستغلها كما ينبغي أن يكون عليه الاستغلال.

مع أن أسعار المنتجات الزراعية والخضراوات مرتفعة جداً، ولها سوق رائجة عند طائفة كبيرة من الشعب، وعند الأجانب المقيمين في هذه البلاد.

ومرت على عيني وانا واقف على ضفة هذا النهر الصور التالية:

آثار نار قد أوقدها موقد للطبخ أو الشي على ضفة النهر فهي تشبه آثار منزل القوم في الصحراء لا سيما أنه ليس في أرض هذه المنطقة أي عشب أخضر بل أية ورقة خضراء. وجذع شجرة ضخمة جداً. وسيارة مرت أمامنا فأثارت عاصفة من الغبار..

وسرب من الغرانيق وهي الطيور البيض التي تعيش قرب الماء ربما كانت عائدة إلى أوكارها في فروع بعض الأشجار المنيعة الواقعة في مياه النهر أو قريبة منها.

وصبيان وفتيان من قبيلة الحوس (الهوسا) الذين هم سكان هذه البلدة، أسماؤهم كلهم إسلامية، ولكنهم لا يعرفون العربية، وقد سألنا طائفة منهم عن ثمار هذه الشجرة الضخمة من شجر العمبة المنفردة التي لا حائط عليها، ولا مانع يمنع من أراد أن يأكل منها أيجوز أن يأكل منها كل من أراد؟ أم أن لها مالكاً لا يجوز أن يجني الثمار غيره؟.

فأجابوا: إنه يجوز عرفاً لكل من مر بها وأراد أن يأكل من ثمارها إذا نضجت أن يفعل غير أنه لا يجوز له أن يأخذ شيئاً من ثمارها ينقله أو يبيعه.

وكان السؤال بالهوساوية ترجمه سائق سيارة القنصلية الذي يعرف العربية أيضا.

وعدنا إلى جانب من البلدة التي تبعد (٧٦) كيلاً الى الشرق من مدينة (كانو) فرأينا بنيات كبيرات قد سترن رؤسهن، ونحورهن، وهو أمر غير طبيعي في إفريقية الخضراء إلا عند المسلمات، وقمائم محروقة كما هي العادة في أكثر المدن النيجيرية قد ترك رمادها في مكانه من البلدة وهو أمر طبيعي لأن الذي لا يستطيع أو لا يرغب في أن يبعد القمائم عن البلدة لا يستطيع أو لا يرغب في أن ينقل رمادها بطبيعة الحال.

وعدنا مسرعين لأن الليل قد أخذ بإرخاء سدوله.

وكان من أهم الأشياء التى استرعت الانتباه عند العودة تكرر منظر النساء اللاتي سترن رؤسهن لأنهن من المسلمات اللاتي اعتدن على الستر، ولباس القرويين من الرجال الذي هو ليس على هيئة واحدة بل

هو يتراوح بين الثياب الفضفاضة المعتادة على بعضهم، والقميص العربي المعتاد واللباس الذي يشبه لباس الباكستانيين لولا أن القميص أقل اتساعًا والسروال لا سعة فيه، ويكون هنا في نيجيريا من قماش واحد.

وراعي بقر قد عاد بأبقاره من المرعى وهو يحثها على سرعة السير ليسلمها لاربابها قبل حلول الظلام وشيء آخر وهو أن راعيا وجدناه قد جمع البقر والغنم عائدًا بها في سرح واحد، وطائفة من النساء بملأن جرارهن الفخارية الحمر من صنبور لمياه الشرب بعيد نوعا ما عن بيوتهن.

يوم الأربعاء: ٨ إبريل ١٩٨١م

هذا اليوم هو الذي يسبق يوم السفر الذي تقرر أن يكون غداً وهو آخر أيام العمل بالنسبة إلى هذه الرحلة الطويلة التي صارت كذلك لأنها لم تتخللها فترات راحة بل كانت كلها أيام عمل وليالي عمل مثل الأيام ومضى جزء منها في التنقل بين القرى والأرياف ابتداء من غامبيا إلى مدينة (كانو) هذه في نيجيريا.

لذلك كان من الطبيعي أن يكون هذا اليوم وربما ليلته معه لاستكمال النظر في التقرير وتصفية حساب المبالغ المالية التي صرفناها مساعدة للجمعيا ت والهيئات والمدارس الإسلامية.

وقد قررنا أن يكون الجزء الأكبر من هذا النهار مخصصاً لهذا الأمر.

فكان الأمر كذلك الا أننا احتجنا إلى الذهاب إلى القنصلية لطبع بعض الأوراق، ولبحث بعض الأشياء المتعلقة بآخر الاعانات المالية.

وكان عملنا بعد الظهر في هذا الذي ذكرته ولما حلت ساعة الأصيل وأدبرت القائلة بسمومها وهمومها خرجنا للجلوس في مقصف الفندق غير بعيد من بركة السباحة لشرب الشاي، والاستماع إلى الناي. وقضاء ساعة أو بعض ساعة في الراحة والحديث البعيد عن العمل وإذا بثقيل من ا لثقلاء جاء إليّ وهو يحسب نفسه فاضلاً من الفضلاء،

بل ظن أنه قد تفضل بالجلوس عندما جلس من غير أن يدعى، وزاد من ثقله أن مَنّ علينا بعمله فأخبرنا أنه إنما جاء من بيته يسعى، ليجلس معنا، وليسمعنا بعض ما يريد أن يقوله، وقد نسي فضوله. في أنه لم يشاورنا في حضوره، وأننا لا يُهمنا ما يريد أن يكلمنا في أمر من أموره.

فجلس مسترخيًا، وأخذ يتمطى بالكلمات تمطيًا، ناسيًا أو متناسيًا أننا بحاجة إلى انقاذ كل دقيقة من وقتنا للعمل أو للراحة من العمل.

فما كان مني إلا أن فررت عند نزوله، وتركت زميلي الفاضلين يقاسيان طول فضوله. وعذت بغرفتي المريحة في الفندق فهى على خوائها ووحدتي فيها التي مللتها خير لي من رفقة مملولة.

حفلة القنصلية:

كرم الأستاذ مصطفي نصرالدين فأقام حفلة عشاء عربية سخية لأعضاء الوفد، دعا إليها طائفة من كبار أهل الفضل والدين فكان منهم ذوو المقامات السياسية والعلمية.

ولم يقدر لكل المدعوين أن يحضروا لأن بعضهم ومنهم الشيخ (حسن) رئيس قضاة ولاية (كانو) ونائبه كانا غائبين عن البلد. والدكتور/ محمد الثاني زهر الدين رئيس قسم الدراسات العربية في جامعة بايروفي كانو.

وكان من بين المدعوين (نصر محمد مشالي) مدير مكتب شركة مصر للطيران في كانو قد أخبر القنصل بأنه رحب بحجزي على

الطائرة المصرية إلى القاهرة، وأنه هو الذي استطاع أن يجد لي مكاناً بعد أن كان الموظفون الآخرون قد قالوا: إنه لايوجد فيها مكان.

وهذا صحيح. وقدأضاف مخاطباً القنصل السعودي قائلاً: أنا سوف أركب سعادة الشيخ بنفسي إلى الطائرة.

ومع ما في هذا القول من شيء لا أحبه إذ لا أحب أن يركبنى أحد لأنني أستطيع أن أركب بنفسي. وقد جبت أنحاء العالم بدون أن أحتاج إلى من يركبني ولكنها مجاملة من هذا الأخ الذي أكثر من عبارات المجاملة مع أنني من الذين يكرهون المبالغات والمجاملات والعبارات المكررة التي تتضمن ألقاباً خاوية، وهي لا تؤدي في النهاية إلا إلى زيادة المجاملات بمثابة الرد عليها وتبعد المعاملات بين الناس من البساطة والصداقة المجردة.

مع كل ذلك فقد سكت لأننى لم أرد أن أرد عليه بذلك في محضر ملأ من القوم وكان قد حضر معه موظف آخر من موظفي مكتب الطيران المصري في كانو شارك هو أيضا في الترحيب (بسعادتي) .

يوم الخميس: ٩ إبريل ١٩٨١م

بدأ هذا اليوم بمحضر اتخذناه مبكرين نحن أعضاء الوفد السعودي إلى غرب إفريقية متعلقاً ببعض الأمور المتصلة بالعمل، لأننا سنبدأ بالافتراق في الساعة التاسعة والنصف من هذا الصباح فأنا سأسافر مع الطائرة المصرية إلى القاهرة فالرياض ومن المقرر أن تقوم في الثانية عشرة والربع ظهرا وزميلاي الشيخان عبدالعزيز الربيعان وإسماعيل ابن عتيق سيسافران مع طائرة الخطوط النيجيرية في الساعة الحادية عشرة ليلاً من مساء هذا اليوم إلى جدة.

اجتماع في القنصلية:

ودعت زميليّ وحملت أمتعتي وذهبت على سيارة القنصلية السعودية للقاء بالقنصل الأخ مصطفى نصرالدين.

وقد حضر الاجتماع بعض موظفي السفارة الآخرين وكان القصد منه توزيع بعض المساعدات العاجلة على مؤسسات لم نتعرف عليها من قبل.

وقد حضر بعض أهل المؤسسات بناء على موعد كنا حددناه لهم من قبل، فدفعنا لهم بعض المساعدات التالية في القنصلية وبتصديق منها من أجل أن تتابع كيفية صرف هذه المساعدات المالية، التي هي رمزية

ولكنها ذات جدوى بالنسبة للمؤسسات والمدارس الإسلامية.

ومن ذلك على سبيل المثال أننا خصصنا مبلغا من المال لمدرسة يدرس فيها عدد لابأس به من أبناء قبيلة الايبو المسيحية من شرق نيجيريا وهؤلاء الأبناء كانوا أسلموا وحضروا إلى كانو لدراسة الدين الإسلامي ومبادئ اللغة العربية على أمل أن يعودوا إلى بلادهم بعد إكمال دراستهم الدينية في الشمال ويدعو إلى الله في الشرق أي للأكثرية غير المسلمة.

وطلبنا من القنصلية أن تدفع ذلك المبلغ منجماً أي مقسطًا للمدرسة حتى تدفع منه مبلغا كل شهر يساعد أولئك الطلبة على الاستمرار في الدراسة.

وذلك لكون إخواننا أخبرونا أن هناك إمكانية لنشر الإسلام هناك عن طريق تعليم أبناء المنطقة، لأن بعضهم قد دخل إلى الإسلام ولكن يصعب على المدارس الإسلامية في الشمال التي هي قائمة أساسًا على تبرعات المحسنين أن تتولى النفقة على الأشياء الفردية اللازمة لهم التي لا يطلبها أبناء المسلمين لأن أهلهم يكفونهم القيام بها كالملابس على سبيل المثال.

فأهل شرق نيجيريا الذين هم الايبو وتقدم القول بأنهم كانوا قبائل وثنية غيرمتعلمة قبل مجيء المستعمرين الذين احتضنوهم وعلموهم المسيحية فصاروا مسيحيين لا يساعدون أبناءهم على تعلم الدين الإسلامي، ولا يعطونهم ما يعينهم على ذلك بطبيعة الحال.

الخروج إلى مطار كانو:

خرجنا من القنصلية إلى المطار على سيارة القنصلية ومعنا سيارة أخرى وخرج معى الأخ الصديق مصطفي مصلي لتوديعنا.

ولما كان هو (دبلوماسيًا) وأنا أحمل جواز سفر (دبلوماسيًا) أيضًا فقد أدخلونا في قاعة كبار الزوار التي يسميها العامة صالون الشرف، ولكنهم طلبوا منا أن نكتب أسماءنا قبل أن يسمحوا لنا بالجلوس ليعرفوا إن كنا (دبلوماسيين) يحق لهم الجلوس فيها، وصار بعض موظفي السفارة يعملون مع مكتب الخطوط المصرية للطيران التى سأسافر عليها من كانو إلى القاهرة ونحن في المكتب على حديث وشراب بارد قدمته موظفة مسئولة في هذه الغرفة.

وقد جاء موظفو السفارة وأخبرونا أن كل شيء قد انتهى واعطوني بطاقة الدخول إلى الطائرة وبقية التذكرة إلا أن مدير مكتب الخطوط المصرية في المطار جاء إليّ يقول إنهم يريدونك، فقلت له: إنني قد انتهيت فلم يريدونني فقال: من أجل تفتيش الحقيبة يريدك ضابط الجمرك، قلت له: أنت تعلم أن جوازي (دبلوماسي) ولا يجيز العرف لضابط الجمرك تفتيشها، فقال: هذا ضروري، وعندما ذهبت معه همس في أذني مع أنه ليس معنا أحد قائلاً: إنهم يريدون شيئًا.

وبالفعل وصلنا الضابط واعطيته ما أشار به المذكور فرسم أشارته على حقيبتي بأن تذهب مع الأمتعة دون أن يفتحها.

عدت إلى غرفة كبار الزوار وكثر مرتادوها حتى أن فيها تسعة من

أعضاء مجلس الشعب وقيل لي: إنهم يودعون بعض الأشخاص ذوي الأهمية، وقد جاء أشخاص لهم مقامات عالية في البلاد منهم الحاج (حبيب محمد خالد) أمير ولاية كانو، ومحمد أبو بكر ريمي حاكم ولاية كانو. والفرق بين وظيفتيهما أن أمير كانو يعتبر بمثابة الخليفة لأمراء البلاد التقليديين الذين يعظمهم الناس أكثر مما يعظمون موظفي الحكومة الكبار ويعينه أمير المؤمنين المقيم في صوكوتو الذي قابلته هناك وسبق الكلام عليه.

بخلاف حاكم الولاية فإن الذي تعينه هي الحكومة التي تكون في الغالب قد فازت في الانتخابات أو تكون من العسكريين الذين استولوا على الحكم بالقوة، فهو أقوى من الناحية التنفيذية من الأول أي أمير ولاية كانو، ولكن (أمير الولاية) أقوى نفوذاً على الناس منه، ولذلك تصرف له الحكومة راتبًا مجزيًا ويسكن بحكم وظيفته في قصر كبير يسمى (قصر كانو) لأن عامة الشعب يطيعون أوامره أكثر مما يطيعون الأوامر التي تصدرها الحكومة لاعتقادهم أن مصدر ولايته هو شرعي على حين ان ولاية حاكم الولاية هي إدارية.

والمراد بالشعب هنا عامة المسلمين خاصة كما هو ظاهر.

كما حضر أحد الكبار في الدولة واسمه (الفوني شجاري) وهو شخصية كبيرة أيضًا.

وليس هؤلاء الكبار كلهم سيسافرون في طائرتنا المسافرة إلى القاهرة إلا ما كان أمر الحاج (حبيب محمد خالد) أمير كانو فانه مسافر مثلي

إلى مصـر، ومنها سيسـافر إلى جدة لأداء مناسك العمـرة وهي عادة له في كل عام لا يحب أن يخل بها.

المدير آخر من يعلم:

تأخر وصول الطائرة إلى مطار (كانو) وكان مـدير مكتبها في كانو قد ذكر لنا من قبـل أنها وصلت إلى لاغوس في طريقها إلـى كانو وهي تبدأ رحلتـها من (أكـرا) عاصـمة غـانا ثم تنزل في ابيجـان عاصـمة سـاحل العاج ثم لاغوس وبعدها (كانو) فالقاهرة.

وعندما سأله الأخ القنصل مصطفى مصلي وغيره عن الطائرة قال: لقد ضللونا ذكـروا أنها قد وصلت إلى لاغوس وتبين أنهـا لم تصل وأنها في أبيجان ثم ذكر بعد ذلك أنه ليس عنده أي خبر عنها ولا أدري من هم الذين عنى بقوله: إنهم ضللوه.

ولكنني طلبت من الأخ القنصل مـصطفي مصلي والسـعوديين الذين مـعي أن ينصرفـوا لأن الموضـوع بالنسـبة إليـهم قـد انتهى فـأنا الآن في قاعة كبار الزوار ومعي جوازي وبطاقة الصعود إلى الطائرة.

امتنعوا أول الأمر ثم ودعوني في الساعة الثانية عشرة وانصرفوا.

وكذلك الذين مـعنا من الشخـصيات الكبـيرة ودعـوا من كان مسـافراً منهم ولم يبق مـعي إلا أمير كـانو السيد حـبيب محـمد خالد وهو الوحـيد الذي سـيركب مـعي في الدرجـة الأولى حـسبمـا أخبـرني مـدير مكتب الشركة المصرية.

غداء الجوع:

ومضى الوقت المحدد لوصول الطائرة المصرية إلى (كانو) ومضى بعده الوقت الذي كان محدداً لمغادرتها لهذا المطار، ولم نجد عنها أي خبر.

وحان وقت الغداء في الواحدة ولم يكن في غرفة الزوار ولا في غيرها شيء يباع مما تميل أنفسنا إلى أكله.

وجاء مدير مكتب الشركة ليجاملني أنا وأمير كانو ونحن ركاب الأولى من هذه المحطة لا أحد غيرنا فذكر أنه إذا وصلت الساعة إلى الثانية من دون أن يرد أي خبر عن الطائرة فإنه سوف يقدم لنا غداء على حساب الشركة. ثم انصرف عنا.

وجاء مسرعاً يقول لنا: إن الغداء جاهز في مطعم المطار فأما أمير كانو فذكر إنه سوف يخرج إلى بيته في المدينة ليتغدى فيه ويبقى مع أهله حتى يرد خبر عن موعد سفر الطائرة ثم ذهب ولم يعد بعد ذلك وكان قال لي: إنه إذا لم يتيسر له السفر اليوم فانه سيؤجل سفره فيما بعد، لأنه عند أهله ولا يوجد ما يحمله على الاستعجال.

أما أنا فقد ذهبت مع أحد الموظفين إلى المطعم وكانت الساعة قد بلغت الثانية والثلث ظهراً وكنت جائعا لأنني لم أتناول طعام الافطار فوجدت ركاب الدرجة السياحية في الطائرة وهم كثير يتزاحمون على باب المطعم والموظفون ينتهرونهم، وصبرت حتى انصرفوا فاعطاني غدائي صحناً فيه قطعة ضخمة من الكسافا الأبيض بياضاً غير ناصع

وتشبه العجينة الكبيرة وقد وضعت وسط مرق حار جدًا إذ أكثروا فيه الفلفل وفيه قطعة صغيرة من البطاطس وقطعة من الشحم من دون لحم.

فجلست أحاول أن آكل هذا الكسافا الذي أذوقه لأول مرة فوجدته صلبًا يصعب عليّ قطعه بأصبعي ولا طعم له، وانما يؤكل بغمسه في هذا المرق الحار الدسم.

ولم استطع تناول المرق أيضًا لكونه حارًا جدًا وثقيلا من الدسم وكذلك قطعة الشحم فيه.

وكنت رأيت مع بعض الركاب شيئًا من الأرز فذهبت إلى صاحب المطعم فقلت له: أنني لا أستطيع أكل الكسافا وأريد بدلا منه من الأرز، فقال: هذا غير ممكن: ففلت له: إنني مستعد أن أدفع ثمنه، فقال: لا يوجد أرز عندنا وكنت أردت أن آكل الأرز بدون إدام، مع العلم بأنني راكب في الدرجة الأولى، وكان الأَوْلَى بالموظف أن يعطيني على الأقل ما أعطى الأولين من ركاب السياحية صحنًا من الأرز.

وعدت إلى قاعة كبار الزوار جائعًا كاسف البال ولم تكن معي نقود نيجيرية كافية.

فوجدت الموظفة في الغرفة نائمة على مقعد طويل فيها، وموظفا آخر لم أره من قبل نائم أيضا على مقعد آخر.

كنت لم أشرب شايًا ولا قهوة منذ أن تركت القنصلية السعودية في الصباح وعادتي أن أشربها في الضحى فأحسست بالصداع فنبهت

الموظفة أطلب منها أن تحضر لي فنجاناً من الشاي أو القهوة لعليّ أستطيع أن استفيد من وقتي في هذا الحبس، فأكتب ما أستطيع أن أكتبه لأنني خالٍ.

ردت عليّ الموظفة ردا جافياً بغضب. بأنها لن تفعل ذلك وقد زاد غضبها عندما قلت لها: إنني سأدفع ثمن الشاي أو القهوة فأخرجت نيرة وقدمتها إليها حلوانا (بقشيشاً) ولكنها استقلتها وأخذت تقول: (بقشيش) نيرة واحدة: وتريها زميلاتها قالت بالانكليزية واحدة واحدة: مع العلم بأنها تساوي بالصرف الرسمي دولارين امريكيين وبالصرف الحر دولارًا ونصفًا.

هذا وقد أعلن مكبر المطار أن الطائرة المصرية وصلت إلى لاغوس وأنها ستصل إلى كانو في الساعة السابعة.

الطرد من قاعة كبار الزوار:

تمددت على أحد المقاعد لأنه لم يكن في القاعة غيري وأسلمت أمرى لله ولم يكن صحيحاً ما أعلنوه في المكبر فقد بلغت الساعة السابعة، ولم تصل الطائرة إلى (كانو) بل إن موظفًا في المطار أخبرني أنه لم ترد عنها أية أخبار وإن ما أعلنوه من مكبر الصوت في المطار لا أساس له من الصحة.

حاولت أن أنام فلم استطع بسبب حركة الدخول والخروج من الموظفين الذين كان بعضهم يشربون من الشراب البارد كالكوكاكولا، وانقطع عني مدير مكتب الخطوط المصرية.

وفي الساعة الثامنة قالت الموظفة التي يصح أن تسمى مضيفة في قاعة كبار الزوار إنني يجب أن أغادر الغرفة، فقلت لها: إن الطائرة المصرية لم تصل، وأنا (دبلوماسي) وأريد أن أجلس هنا.

فقالت: إن الساعة قد بلغت الثامنة وأنا أريد أن أغلق الغرفة وإذا لم تخرج منها فسوف أغلقها عليك.

فخرجت بسرعة إذّ تصورت أنها أغلقت بابها عليّ وصعدت للطابق الثاني حيث قاعة الترحيل التي فيها ركاب الدرجة السياحية وهي قاعة مزدحمة ذات مقاعد محدودة، جلست في أحدها أغالب الصداع والتعب الناشئ عن الجوع والسهر البارحة في اعداد التقرير. فطلبت من مقصف في هذه القاعة أن يصنع لي فنجانًا من القهوة أو الشاي فذكر أنه لا يوجد عندهم إلا الجعة (البيرة)، ولم أطق صبرًا على هذا فخرجت من قاعة الترحيل في اتجاه الخروج من المطار فتجاوزت الجمرك ومكاتب الجوازات حتى وصلت إلى مقهاة كبيرة في المطارمما يلي المدينة فطلبت منها شايًا أو قهوة فلم يكن عندهم شيء من ذلك وإنما عندهم شراب بارد، ولم يكن عندهم ما يؤكل إلا(ساندويتش) لم اشتره لأنني شككت في نظافته.

وصادف أن رأيت صاحبيّ الشيخين عبدالعزيز الربيعان وإسماعيل ابن عتيق. فذكرا أنهما لم يعرفا بتأخر الطائرة وأنهما ظنا أنني سافرت فأخبرتهما بجلية الأمر وأخذت منهما قليلاً بقي معهما من (النيرات) النيجيرية لأنه ليس معي شيء منها إلا ما لا يذكر، ظنا مني أنني مسافرمن نيجيريا وتاركها.

ورجعت مرة أخرى إلى قاعة الترحيل دون أن يعترضني معترض كما كان عليه الأمر في الخروج.

البشارة بقدوم الطائرة:

في العاشرة إلا الربع ليلا صعد مدير مكتب الخطوط المصرية إلى قاعة الترحيل، وصار يقول للناس لقد وصلت الطائرة وقال لي: ياحاج محمد، وصلت الطائرة.

وتبين أنها لم تصل بعد، وإنما وصلت بعد قليل فأعلنوا بعد ذلك في الحادية عشرة والنصف أن على ركاب الطائرة المصرية أن ينزلوا إليها وكانوا كثيراً شكلوا صفاً طويلاً (طابوراً) أمام بوابة النزول مع الدرج إلى الطائرة. وأنا أراهم فقلت في نفسي: إنني راكب فى الأولى وينبغي أن يطلبوني للركوب قبل الناس وأنا الوحيد في الدرجة الأولى وربما كانوا يريدون أن يفعلوا ذلك فيما بعد، ومع ذلك ينبغي لي أن أذهب مع الناس ولا أنتظر مجيء أحد، إلا أن الوقوف في الطابور الطويل يشق عليّ.

وجلست في المعقد أنتظر أن يتقلص هذا الطابور فنعست ولما فتحت عيني وجدت (الطابور) على حاله، فقلت في نفسي: ربما كانوا أوقفوا دخولهم بسبب من الأسباب، ولم أدر أن السهر والتعب قد خدعني وأن الطابور هذا هو لطائرة أخرى وأن ركاب الطائرة المصرية قد نزلوا كلهم.

وأحسست فجأة كأنما نبهني شيئ من النوم، فلم أجد أحداً من الواقفين في (الطابور) ولا غيرهم فنزلت أعدو وأنزل إلى ساحة وقوف الطائرة واذا بمدير مكتب الخطوط المصرية يقول لي: (أنت فين ياحاج محمد؟).

أركب سعادتي وتركني:

قال لي: يلومني وأنا أرى الطائرة قد أغلقت أبوابها وبدأت ادارة محركاتها ولكنها لم تبرح مكانها، لماذا لم تأت مع الركاب؟.

فقلت له: إنني في أنتظاركم أن تنادوا ركاب الدرجة الأولى وأنا الوحيد في هذه الدرجة معكم فأرجوك أن تأمر المضيفين داخل الطائرة أن يفتحوا لي بابها، فقال:(ماقدرشّ) فحاولت بكل ما وسعني أن اجعله يفعل ذلك لأن الطائرة لاتزال واقفة في مكانها فلم يفعل مع ان السلم غير بعيد منها وإن كانوا قد نحوه عنها.

وتحركت الطائرة فعرفت إن الجدال معه غير مجد.

وقد عرفت أيضاً معنى قوله في حفلة القنصلية البارحة: (أنا حاركّبْ سعادتك) وأن المراد منه غير ما فهمته، فقد (أركّب سعادتي) بالفعل وتركني بدون سعادة. ولكنه (أركّبَ) أيضا مع سعادتي حقيبتي الكبيرة المليئة بما حصلته طول هذه السفرة الطويلة، وتركني -أيضاً - بدون حقيبة.

لم يبق في المطار غيري وغير مدير مكتب الخطوط المصرية فقلت له: إنني لن أتركك لأنه ليست معي نقود نيجيرية تكفي لاستئجار فندق،

هذا إذا عـرفت فندقاً أنزل فيـه، لأنني لا آعـرف أي فندق ولا آمن على نفسي ومعي حقيبتي اليدوية وفيها جواز سفري وأوراقي وبعد مجادلات ومـحاولات قَبِلَ بأن يبـحث لي عن فندق ليس من فنادق الدرجـة الأولى يسكنني فيـه بقية الليلة وكـانت الساعة قد بلغت الواحـدة إلا الربع حيث أن الطائرة المصرية قامت في الثانية عشرة والربع بعد منتصف الليل.

أخذني المدير مـعه في سيارة له من طراز فـولكس فاجن وانزلني في فندق قريب من المطار اسمه (أكيجا هوتيل) وتحدث مع أهله فترة فهمت أنهم قبلوا أن يقيدوا أجرة الغرفة على الشركة المصرية.

فدخلت غرفة الفندق وأنا لا أكاد أصدق.

وفي هذه الحالة وقد عرفت أن الطائرة فاتتني ومعها حقيبتي التي فيها ملابسي عـرفت أن الملابس التي على ظهري يجب أن أعتني بهـا حتى أجد حقيبتي في مصر بعد مدة لا أعرفها.

خلعت ملابسي كلها واستعضت عنها بفوطة كانت في حمام الغرفة. وكنت صليت المغـرب والعشاء جـمعاً في قاعـة كبـار الزوار فرحت في نوم عميق.

يوم الجمعة: ١٠ إبريل ١٩٨١م

إلى القنصلية السعودية:

تركت فندق (أكيجا هوتيل) في الثامنة دون افطار وأخذت كل ما لي فيه وأخبرت أهله أنني مغادره ووقفت على الرصيف أشير إلى سيارات الأجرة التي كانت قليلة في هذه الساعة المبكرة إلى أن جاء سائق مسلم على رأسه طاقية إظهاراً لشعاره الإسلامي واسمه محمد التيجاني فسألته عما اذا كان يعرف القنصلية السعودية فأجاب أنه يعرفها فاتفقت معه على أن يوصلني إليها بثلاث نيرات.

فسار في الشوارع مسافة ثم أخذ يسألني عن مقر القنصلية فقلت له: أنني لا أعرفها ولولا ذلك لما سألتك عما إذا كنت تعرفها.

ثم أوقف سيارته على الرصيف وقال: لقد سرت كثيراً، وأريد زيادة نيرة، والمهم أنه لم تكن معي إلا خمس نيرات أردت ابقاء واحدة منها أو اثنتين للطوارئ، وصار يسأل الناس عن القنصلية ثم تجمهورا علينا وأخيراً جاء رجل مثقف وذكر عنوان مكتب الخطوط السعودية الذي فيه مكتب الخطوط المصرية أيضاً.

فأوصلني السائق إلى المكتب وفيه رجل عرفني أمس فأخبره بعنوان القنصلية.

العوده من حيث لا يحتسب:

عدت إلى القنصلية واعطيت السائق كل ما معي من النقود النيجيرية هي خمس نيرات لأنني اطمأننت الآن وعندما دخلت على ا لقنصل الاستاذ/ مصطفى نصرالدين فوجئ بذلك فقد كان يظن أنني سافرت مع الطائرة المصرية أمس.

وقام الرجل الشهم الأستاذ/ مصطفى مصلى يعرض عليّ كومة من النقود النيجيرية بدون عد أو حساب عندما قلت له: انه لم يكن معي منها شيء، ولم أكن أحتاجها الآن فأرسل موظف عندهم سودانيا بارعاً في مثل هذه الأمور إلى الخطوط المصرية والنيجيرية وغيرهما.

فذكر المصريون أنه لا رحلة عندهم إلى القاهرة إلا يوم الثلاثاء أي بعد أربعة أيام ثم أخبره النيجيريون أن أفضل طريقة أن أغير تذكرتي فتكون من كانو إلى لندن فالقاهرة فالرياض ولكن ذلك يعني أن أدفع ٤٢٠ دولارًا امريكيًا زيادة على تذكرتي التي أحملها التي هي من كانو إلى القاهرة فالرياض لأنها كانت بقية تذكرة طويلة.

وهكذا دفعت ٤٢٠ دولارًا، إضافة إلى مجهود سيارتين من سيارات القنصلية كل واحدة معها عدد من الموظفين أرسلتهم القنصلية ليحاولوا الحجز لي إلى لندن قبل الساعة الواحدة من ظهر هذا اليوم وهو موعد سفر الطائرة النيجيرية المقرر إلى لندن.

العودة إلى المطار:

أراد الأخ الأستاذ/ مصطفى نصرالدين أن يخرج معي للمطار كما

فعل أمس فرفضت ذلك ورجوته الا يفعل فأرسل معي اثنين من الموظفين أحدهما الأخ صالح جمعان اللحياني وهو موظف سعودي في القنصلية وقد بقي معي جزاه الله خيراً حتى غادرت نيجيريا والثاني: موظف في السفارة نيجيري خبير بمثل هذه الأمور وبالتعامل مع الموظفين النيجيريين.

وقطعوا لي بطاقة الصعود إلى الطائرة في الدرجة الأولى مع الخطوط النيجيرية التي من المقرر أن تغادر كانو إلى لندن في الواحدة ظهراً، ودخلنا معاً إلى غرفة كبار الزوار التي كنت فيها أمس.

إلا أننا كلناخشينا أن تغفل الموظفة عن تنبيهنا على قيام الطائرة فتفوتني فتركناها وصعدنا إلى قاعة المغادرة ومعي الإخوان لأنهما من (الدبلوماسيين) المأذون لهم.

المأزق الثاني:

كنت مسروراً بهدا الحل الذي وان كنت دفعت له مبلغاً إضافيا من المال فانه – في ظني – أعفاني من اللبث وقتا أكثر في كانو، وذلك يتيح لي سرعة الوصول إلى القاهرة وتسلم حقيبتي هناك.

وأعلن مكبر الصوت في المطار شيئاً اضطرب له مرافقي إذ فهموه دون أن أفهمه وهو أن الطائرة التي من المقرر أن تأتي من لاغوس وتنزل في مطار كانو قد جاوزت مطار كانو ذاهبة إلى لندن دون أن تنزل، وأن على الركاب الذين قطعوا فيها أن يراجعوا مكاتب الشركة النيجيرية للحجز لهم غداً، إذا كانوا يرغبون في ذلك!!!

وكان هذا مأزقا حقيقيًا فقد قُدِرَ لي أن أبقى يومًا آخر في كانو بدون أن تكون معي ملابسي وأمتعتي الأخرى. ولذلك لم أتعب في استعادة أي شيء لي من المطار و(العريان في القافلة مرتاح) كما يقول المثل، وخرجنا من المطار نجر أرجلنا إلى سيارة القنصلية، إلا أن الأخ النيجيري بادرهم وحجز لي مقعداً في الدرجة الأولى على الطائرة التي ستسافر غداً إلى لندن في الموعد نفسه وهو الواحدة ظهراً.

العودة إلى فندق دولة:

عدنا إلى فندق دولة في كانو وهو الفندق الذي خرجت منه أمس، ووجدنا في مكتب الاستقبال رجلا وامرأة كاد الرجل يقول: إنه لا توجد لديهم غرف خالية على عادتهم في مثل هذه الأحوال غير أنني سارعت فقلت له: إنني ضيفكم منذ أيام ولم أترك الفندق إلا البارحة ولعلك تذكرني.

فقال: نعم، وهولا يكاد يتكلم معنا وأمثالنا إلا بكلمات مختصرة، يقصد من ذلك مثل غيره اهانتنا رداً على ما يظنه في ذهنه أننا لا نحترمه وأمثاله والأمر ليس كذلك.

ففتش في أوراقه مليا ببطاءٍ وعدم مبالاة ثم قال: إدفع إلى الصندوق أجرة الغرفة والتأمين وائتنى بالايصال الذي يثبت ذلك حتى أعطيك مفتاح الغرفة.

وهذه عادة لهم – كما ذكرت – أن يتسلموا الأجرة مقدمة ومثلها معها تأمينا لما قد يأكله النزيل أو يشربه في الفندق ولا يدفع ثمنه أو ما قد

يفسده من أثاث الفندق كما قال لي أحدهم.

لم أجد أمين الصندوق فذكروا أنه ذهب ويأتي قريبا.

فقلت للإخوة المرافقين: أن الأمر انتهى بكما ويمكنكما الذهاب الآن.

فقالا: سنذهب ونعود إليك غداً مابين العاشرة والنصف والحادية عشرة قبل الظهر، فأخذوا رقم الغرفة من موظف الاستقبال وسجلوه وذهبوا.

جاء أمين الصندوق فدفعت أجرة الغرفة والتأمين المطلوب الذي هو مبلغ من المال لا يقل عن أجرة الغرفة.

فاعطاني موظف الاستقبال في الفندق ورقة عليها رقم الغرفة كالعادة، فلما رأتها موظفة كانت معها المفاتيح أخذت تناديه مراراً وهو لا يرد عليها قائلة: عبدالسلام، عبدالسلام، عبدالسلام، فتراطن معها لبعض الوقت باختصار ثم اعطتني مفتاح الغرفة.

ليلة النوم العميق:

وشعرت بالراحة لكون كل شيء كان مرتباً وكتبت قليلاً ثم أكلت شيئاً خفيفاً من مطعم الفندق وصليت المغرب والعشاء حالما غربت الشمس ورحت في نوم عميق لم أصح منه إلا فجر اليوم التالي.

يوم السبت: ١١ إبريل ١٩٨١م

المأزق الثالث:

صحوت مبكرًا لأنني كنت نمت مبكرًا فأفطرت في الفندق وجلست في غرفتي أكتب مطمئنا إلى أن الإخوة من أهل القنصلية السعودية سيأتون إليّ لأنهم كانوا قد تسلموا رقم غرفتي أمس، ولكنهم لم يحضروا في الموعد المحدد ولم أستطع أن أجد تفسيرًا لذلك، لأنني أعرف حرصهم وأن صديقي الأستاذ/ مصطفى مصلي قنصل المملكة العربية السعودية في كانو يتابع موضوعي وهو رئيس القنصلية التي فيها من الموظفين مثلما في السفارة أو أكثر نظرًا لأهمية هذه المنطقة الإسلامية من شمال نيجيريا، وكثرة من يحجون ويعتمرون منهم، بل حتى من يتاجرون ما بين المملكة وبين نيجيريا لذلك كان لديهم عمل كبير في منح سمات الدخول لهم وفي غير ذلك.

وانتابني القلق فخرجت من غرفتي في الحادية عشرة والربع وجلست في الاستقبال حتى مللت فسلمتهم مفتاح الغرفة وركبت سيارة أجرة إلى المطار.

وكان الإخوة في القنصلية قد اعطوني نقودًا نيجيرية كافية فذهبت مع سيارة أجرة إلى المطار.

وكانت الصعوبة التي لم أتصورها إذ لم أجرب من قبل أن أقف أمام مكاتب الترحيل في المطار وإنما كان الموظفون في القنصلية يقومون بذلك نيابة عني، ذلك بأنني رأيت موظفي الترحيل يخاطبون المسافرين من وراء جدار مغلق فيه فتحة تحاذي صدر الواقف مثل التي تكون في شباك الصرافين في البنوك، وفي أسفل الجدار ممايلي الأرض فتحة أخرى تدخل منها الحقائب حيث يتسلمها موظف الترحيل بعد أن يتسلم تذكرة الراكب.

والصعوبة في أن المسافرين كانوا قد ضربوا نطاقًا محكمًا حول النافذة التي تصلهم بموظف الترحيل لا سبيل لمثلي إلى اختراقها، وانتظرت كما يفعل الرجل المتعلم أن ينتهي من كانوا قبلي ولكن المشكلة كانت أن أناسًا جاؤا بعدي ولم يبالوا بي وإنما زاحموا وصاروا قبلي.

وتيقنت أن موعد الطائرة سيحل قبل أن استطيع أن أكلم موظف الترحيل ولم يسمع احد من الركاب توسلاتي بأن يتيحوا لي الفرصة للاقتراب من النافذة.

فرأيت امرأة مهذبة موظفة – في الشركة – وعرفتها بذلك لكونها قد علقت بطاقة الانتساب للشركة على صدرها وقد خرجت من مكتب الترحيل فلحقت بها وقلت لها: إنني غريب ومحتاج إلى معونتك فأنا مسافر إلى لندن وليس معي أمتعة، وكل ما أرجوه هو أخذ التذكرة واعطائي بطاقة الصعود إلى الطائرة لأنني لم استطع الوصول إلى موظف الترحيل.

فعادت إلى داخل المكتب وفعلت ذلك واعطتني بطاقة الصعود إلى الطائرة.

هذا مع العلم بأنني سأركب في الأولى والمفروض أن يكون لها مكتب خاص بها أو على الأقل تكون لها تسهيلات خاصة.

وهنا حضر مندوبا القنصلية وذكرا أنهما لم يعثرا عليّ في الفندق ولا في أي مكان وقالا: لقد حضرنا إلى الفندق في الموعد المحدد ومعنا رقم الغرفة فوجدنا أن الذي فيها هو رجل أمريكي وأخبرنا الموظفون في الفندق أنه لايوجد عندهم شخص سعودي باسمك مطلقًا!

قالا: مع أننا تسلمنا الرقم نفسه وتركناك عندهم.

وتبين أن السبب أن الرقم الذي كان موظف الفندق قد أعطاهم إياه كان لغرفة مشغولة أبدلوها بغيرها من دون أن يخبروني ولما سألوا عن الغرفة وجدوا فيها غيري ولم يخبروهم برقم الغرفة الأخرى التي نمت فيها.

وعدنا معهم إلى الجلوس في قاعة المغادرة ولم نقبل الذهاب إلى غرفة كبار الزوار، وقد ختم الموظفون على جوازي لليوم الثالث على التوالي بخاتم الخروج، وجاءت الطائرة فنزلت في مطار (كانو) وفي هذه المرة قلت لهم: إنني أرجو ألا تتركوني حتى أركب في الطائرة وألا تغادروا المطار حتى تغادره الطائرة لأنني لا أدري ماذا يحصل فيها.

وقال لي أصحابي: إننا نعرف أن الموظفين هنا قد يقطعون تذاكر لعدد من الركاب أكثر من عدد المقاعد الخالية في الطائرة حتى إذا جاء

الراكب وجد أنه لا يوجد له مقعد في الطائرة رغم كونه يحمل بطاقة الدخول إلى الطائرة، لذا كلموا الموظف المسئول فطلبوا منه ان يركبني قبل غيري.

وهكذا فعل بعد أن أفهموه ما يريد ان يفهمه في مثل هذه الحال - فرافقني ذلك الضابط حتى أخذت مقعدي في الطائرة.

من كانو إلى لندن:

قامت الطائرة النيجيرية من طراز دي سي ١٠ الضخم وأعلن مكبر الصوت فيها أن الطيران إلى لندن سيستغرق ست ساعات الا ربعًا وأن الطائرة سوف تحلق على ارتفاع ٣٧ ألف قدم، وكان اقلاعها في الساعة الثانية وعشر دقائق ظهرًا.

وقد أعلن الطيار عن خط السير إلى لندن وعن الدول التى سنمر بها في طريقنا إلى هناك وأولها النيجر والجزائر.

وكانت خدمتهم في الدرجة الأولى مناسبة، وقدموا وجبة طعام جيدة ولم يكن في مقاعد الدرجة الأولى إلا نصفها ركابا والنصف الآخر كان خاليًا.

ومررنا فوق الصحراء الإفريقية المسماة بالصحراء الكبرى وكان الجو فيها صحراويًا صاحيًا بل صافيًا لمدة ساعتين كانوا يسعون أثناءها في تقديم الضيافة وقد تمتعت بمنظر الصحراء الذي لم أره يختلف من الطائرة عن منظر الصحراء العربية، ثم أغلقوا النوافذ وعرضوا شريطا سينمائيًا.

وكانت هديتهم هدية غير ثمينة إذ هي زجاجتان مختومتان من الخمر، ودخان، فاستنكرت ذلك وقلت للمضيف: كيف تهدي إليّ الخمر وأنا مسلم؟ وتهدي الدخان وأنت تراني لا أدخن، فلما رأى ذلك مني اشار بسخرية إلى الركاب قائلاً: هؤلاء مسلمون ويشربونها.

وقال: أنا أعلم أنها حرام في الإسلام مع أنني غير مسلم.

في مطار هيثرو بلندن:

في السابعة والربع أعلن مكبر الصوت في الطائرة للركاب أن عليهم أن يربطوا أحزمة المقاعد، وذكر بعد ذلك أن حالة الجو في لندن جيدة وأن درجة الحرارة هي ٩ درجات مئوية ولاحظت أن الجو في لندن قليل الغيوم خلاف المعتاد، وحوّمت الطائرة فوق ضواحٍ متسعة من مدينة لندن الكبيرة.

وأهم ما يلاحظه الناظر إليها من الجو أن منظر البيوت فيها يكاد يكون متشابهًا في وحدة رتيبة مملة.

وتبدو المدينة مزدحمة لولا وجود الحدائق والساحات الخضر الواسعة، والميادين العديدة وإن لم تكن واسعة.

وفي السابعة والنصف هبطت الطائرة في مطار هيثرو في لندن وكان أول ما رأيته طائرة سعودية جاثمة في المطار.

ودخلنا المطار المستطيل المتعب لولا وجود السيور المتحركة فيه وكان أول ما رأيته منظرًا إنسانيًا أعجبني وهو منظر رجل يركض ليلحق بامرأة معها حمل من الحقائب والأمتعة أثقلها، ومعها طفلان يتبعانها فحمل بعض ما يثقلها من متاعها.

ولم أهتد إلى مكتب تحويل الرحلات فدلني عليه صبية مراهقون، ولم يتركوني حتى أوقفوني على المكتب فوجدت فيه رجلاً انكليزيًا أريته الحجز الذي في تذكرتي من لندن إلى القاهرة غدًا على الدرجة الأولى فنظر في حاسب آلي عنده وقال: حظك حسن لأنه لم يبق عندي مقعد في الدرجة الأولى إلا واحد حجزته لك.

ثم طلب مني أن أذهب إلى مندوب الخطوط النيجيرية التى قدمت معها، حتى يعطيني فندقًا ويعمل لي إجراءات الحصول على سمة دخول لمدة اربع وعشرين ساعة.

وكنت رأيت مندوب الشركة النيجيرية قبل ذلك حوله عدد كبير من الناس يتكلمون معه بصوت مرتفع بحيث لم أستمع الحديث منه ثم ذهب وتركهم.

فقلت له: إنني ذاهب معكم غدًا وإذا كان أجرة فندقي في العادة تكون على النيجيرية فانه يمكنكم أن تطالبوها بذلك، فاستجاب لطلبي واعطاني ورقة للفندق فيها السكنى ووجبات الأكل إلى ما بعد ظهر غد.

فقصدت مكاتب الجوازات ووقفت أمام مكتب فيه ضابطة رأتني لم أملأ البطاقة التي يملأها الواصلون وكنت ظننت أن الذي يمر لمدة اربع وعشرين ساعة لا يحتاجها فملأتها بنفسها لي مع أن خلفي اناسًا واقفين وجاملتني بعبارات من الترحيب لها في نفس الغريب وقع حسن. وتجاوزت منطقة الجوازات إلى (الجمرك) فلم يوقفوني.

ونزلت في فندق (أكسيليور) القريب من المطار ممايلي المدينة، وكنت

ركبت مع سيارة للفندق وجدتها تنتظر عند بوابة الخروج مما يلي المدينة.

وهو فندق جيد من الدرجة الأولى، ولم يستغرق دخولي إلى الغرفة منذ أن دخلت من باب الفندق أكثر من دقيقة واحدة، فذكرت فنادق نيجيريا – عمرها الله – وكيف يحتاج الدخول إليها إلى شفاعة بل شفاعتين إحداهما شفاعة توضع في اليد.

وضعت أمتعتي في الغرفة ونزلت أبتغي العشاء في المطعم الفاخر فإذا به واسع ومطبخه أولنقل المعروض من أنواع الطعام فيه متنوع على غرار المائدة المفتوحة، وفيه ما لذ وطاب من أنواع المأكول والمشروب مما لم أر له مثيلا في نيجيريا.

والأهم من ذلك أن الطباخ أو العامل حوله وهو انكليزي أصيل فيما يظهر من حاله سارع يسأل عما إذا كنت أريد مساعدة، فأخبرته أنني لا أريد شيئًا قرب منه لحم الخنزير فسارع يعرض عليّ اللحوم الحلال ويقطع ويضع في صحني وأما عن السلطات فإنها غاية في التنوع والكثرة وكذلك الفاكهة والحلوى، والمطعم مزدحم قال لي أحدهم: إن ذلك لكون الليلة هي ليلة الأحد اي التي يسفر صباحها عن يوم الاحد.

وفي الفندق عدة مقاه ومشارب رأيت حفلة كبيرة في آحدها، مع أن النزيل يمكنه أن يصنع القهوة والشاي في غرفته اذا اراد لأن ذلك موجود معه لذلك في الغرفة، ومع القهوة والشاي الحليب البارد بعضه في كاسات وبعضه في ورق.

يوم الأحد: ١٢ ابريل ١٩٨١م

صباح أخضر

كان صباح الفندق أخضر من خضرتين إحداهما حسية وهي الخضرة التي طالعتها عندما فتحت النافذة في الغرفة فإذا بها تطل على حديقة صغيرة خضراء توشح خضرتها زهرات ربيعية صفر.

وخضرة معنوية في معاملة العمال الذين كانوا يشرفون على الفطور في الفندق، فكانوا إذا لم يبتسموا لك، وقلما تعدم الابتسامة وبخاصة من الجنس اللطيف منهم، فإنهم لن يقصروا في تلبية طلبك لما تريده من طعام أو شراب زائد عما هو معروض على المائدة المفتوحة إلا أن البيض يصنعونه بناء على رغبتك إذا لم يعجبك الجاهز منه.

من لندن إلى القاهرة:

كان الخروج من الفندق إلى المطار سهلاً ميسراً على سيارة الفندق، كما كان الخروج إلى الطائرة كذلك، وركبت في الدرجة الأولى في طائرة الخطوط البريطانية المسماة (بريتش ايرويز) وهي من طراز (ترايستار) التي نعرفها في بلادنا ودرجتها الأولى مليئة كلها.

وفي القاهرة تسلمت حقيبتي حيث وجدتها في مخزن الأمتعة المتخلفة ثم سافرت منها إلى الرياض.

الفهـــــرس

الموضـــوع	الصفحة
الحوس أو الهوسا	٧
بلاد التكارنة	٩
وبلاد الشيخ عثمان دان فودي	١١
في مطار كادونا	١٢
فندق حمد الله	١٤
هل نحن في الخرطوم؟	٢١
شعب الهوسا	٢٣
إلى نصر الإسلام	٢٥
الملثمون	٢٨
في مقر نصر الإسلام	٣٠
جولة في كادونا	٣٠
في حي شعبي	٣١
مدرسة نور الإسلام	٣٣
مدرسة إحياء السنة	٣٦
كيف النهار؟	٣٨
عودة إلى الجولة	٣٩
فندق الزيارة	٤٠
السور الطيني	٤٠

الموضـــوع	الصفحة
في الأسواق الشعبية	٤٢
جلد البقر المشوي بجانب المسجلات	٤٥
إلى نهر كدونا	٤٩
قبر أحمدو بيللو	٥١
ومسجده	٥٣
بيت الشيخ إبي بكر قومي	٥٧
في المتحف الوطني	٥٨
الكتابة على العظام	٥٨
هذا المساء	٦٣
في مطار كدونا .. ثانية	٦٦
في مطار كانو	٦٩
إلى صوكوتو دار الخلافة القديمة	٦٩
في مطار صوكوتو	٧١
هذه صوكوتو	٧٥
جولة في مدينة صوكتو	٧٧
في وسط صوكوتو	٨٣
سرح البقر	٨٤
وسرح الغنم	٨٥
نهر ريما	١٦
عراة في النهر	١٧
عودة إلى الجولة	١٨

الموضـــوع	الصفحة
المشرع هو المحكمة	٩١
المبالغة في تعظيم الحكام	٩٢
زيارة قبر الشيخ عثمان بن فودي	٩٥
هذا هو القبر	٩٦
مسجد الشيخ عثمان	١٠٣
الجذولي في دلائل الخيرات	١٠٥
صوكوتو أكثر مدن نيجيريا شحاذين	١٠٦
أعطونا ماء	١٠٧
في ريف صوكوتو	١٠٨
قرية قندو دنداوه	١١٠
الحمير أغلاها الجنوبيون	١١١
على شفير البئر	١١٢
السعي إلى مقابلة أمير المؤمنين	١١٤
على باب القصر	١١٦
في حضرة أمير المؤمنين	١١٨
المقام التكروني	١٢٢
مع الوزير الذكي	١٢٣
في بيت الوزير	١٢٦
إلى كلية التربية	١٢٨
يدفعون للطلاب مكافآت	١٢٩
السفر إلى كانو	١٢٩

الموضـــوع	الصفحة
الإسلام في كانو	١٣٢
من صوكوتو إلى كانو	١٣٣
في مدينة كانو	١٣٢
إلى جامع عبدالله بايرو	١٣٩
قتنة مروي	١٤٢
في قلب المدينة الحديثة	١٤٣
بيت أمير كانو	١٤٤
أول مسجد في كانو	١٤٥
حديث الأمن	١٤٧
في القنصلية السعودية	١٤٨
جولة في كانو	١٥٠
حارة بيرني	١٥١
في سوق شعبي	١٥٢
صيدلية شعبية	١٥٣
وصيدلية أعشاب	١٥٤
وخرجنا من كانو	١٥٧
كلية الشريعة الإسلامية والقانون	١٥٨
مركز الدراسات الإسلامية	١٦١
فكرة لوزارة الخارجية السعودية	١٦٢
إلى ريف كانو	١٦٤
المطينة بجانب القرية	١٦٦

الموضـــوع	الصفحة
على نهر كوجي	١٦٨
حفلة القنصلية	١٧٤
اجتماع في القنصلية	١٧٦
الخروج إلى مطار كانو	١٧٨
المدير آخر من يعلم	١٨٠
غداء الجوع	١٨١
الطرد من قاعة كبار الزوار	١٨٣
البشارة بقدوم الطائرة	١٨٥
أركب سعادتي وتركني	١٨٦
إلى القنصلية السعودية	١٨٨
العودة من حيث لايحتسب	١٨٩
العودة إلى المطار	١٨٩
المأزق الثاني	١٩٠
العودة إلى فندق دولة	١٩١
ليلة النوم العميق	١٩٢
المأزق الثالث	١٩٣
من كانو إلى لندن	١٩٤
في مطار هيثرو بلندن	١٩٧
صباح أخضر	٢٠٠
من لندن إلى القاهرة	٢٠٠
الفهـــرس	٢٠١

https://dawa.center
المستودع الدعوي الرقمي
Osoul Center For Studies

كتب في الرحلات للمؤلف

أولاً - كتب مطبوعة:

١- «في إفريقية الخضراء» طبع أكثر من مرة. وترجم إلى عدة لغات.
٢- «مدغشقر: بلاد المسلمين الضائعين» نشره النادي الأدبي في الرياض.
٣- «جولة في جزائر البحر الزنجي» طبع المطابع الأهلية للأوفست بالرياض ١٤٠٢ هـ.
٤- «في نيبال، بلاد الجبال» طبع مطابع نجد في الرياض.
٥- «رحلة إلى جزر مالديف» طبع مرات ونشرته دار العلوم في الرياض.
٦- «رحلة إلى سيلان» نشرته الجمعية العربية السعودية للفنون والثقافة.
٧- «صلة الحديث عن إفريقية» نشرته دار العلوم في الرياض عام ١٤٠٤ هـ.
٨- «مشاهدات في بلاد العنصريين» نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة.
٩- «شهر في غرب إفريقية» طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض.
١٠- «زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية» طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض
١١- «رحلات في أمريكا الوسطى» طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض
١٢- «إطلالة على نهاية العالم الجنوبي» نشره النادي الأدبي في مكة المكرمة.
١٣- «إلى أقصى الجنوب الأمريكي» طبع في مطابع الفرزدق بالرياض.
١٤- «ذكريات في إفريقية» محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي.
١٥- «جولة في جزائر البحر الكاريبي» طبع في المطابع الأهلية للأوفست بالرياض.
١٦- «على قمم جبال الأنديز» طبع في مطابع الفرزدق التجارية.
١٧- «جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ» طبع بمطابع الفرزدق التجارية.
١٨- «على ضفاف الأمازون» نشره النادي الأدبي في أبها.
١٩- «في أعماق الصين الشعبية» نشرته مجلة المنهل التي تصدر في جدة.
٢٠- «نظرة في وسط إفريقية» طبع في مطابع الفرزدق التجارية.
٢١- «في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر» طبع بمطابع الفرزدق التجارية.
٢٢- «في غرب البرازيل».
٢٣- «بقية الحديث عن إفريقية».
٢٤- «بورما الخبر العيان» طبع في بيروت.
٢٥- «داخل أسوار الصين» (مجلدان).
٢٦- «مع المسلمين البولنديين».
٢٧- «بين الأرغواي والبارغواي».
٢٨- «سياحة في كشمير».
٢٩- «جمهورية أذربيجان».
٣٠- «بلاد الداغستان».
٣١- «ذكريات من يوغسلافيا» مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٣٢- «مقال عن بلاد البنغال مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٣٣- «أيام في النيجر» طبع في بيروت
٣٤- «الرحلة الروسية» مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٣٥- «نظرة في أوروبا الشرقية وحالة المسلمين بعد سقوط الشيوعية.. طبع بيروت.
٣٦- «كنت في بلغاريا» مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٣٧- «كنت في ألبانيا» مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٣٨- «قصة سفر في نيجيريا» (مجلدان).
٣٩- «على أرض القهوة البرازيلية» مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٤٠- «بين غينيا بيساو، وغينيا كوناكري» مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٤١- «من أنقولا إلى جزر الرأس الأخضر» مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٤٢- «في قلب الصين» نشرته رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.
٤٣- «في آسيا الوسطى» مطابع الفرزدق التجارية بالرياض.
٤٤- «حديث قازاقستان» نشرته دار القبلة في جدة.
٤٥- «بلاد القرم» نشرته دار القبلة في جدة.

ثانياً: كتب مخطوطة:

٤٦- «في ربوع السودان الغربي».
٤٧- «وراء العمل الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية».
٤٨- «رحلات في أمريكا الجنوبية».
٤٩- «رحلات في شرق الهند».
٥٠- «رحلات في شمال الهند الشرقي».
٥١- «وراء العمل الإسلامي القارة الإسترالية».
٥٢- «وراء المشرقين: رحلة حول العالم».
٥٣- «في بلاد الهند والسند: باكستان».
٥٤- «في أندونيسيا: أكبر بلاد المسلمين».
٥٥- «مشاهدات في تايلند».
٥٦- «رحلات في بلاد الملايو».
٥٧- «نظرة إلى الفلبين بين زيارتين رسمية وخاصة».
٥٨- «الإشراف على أطراف من المغرب العربي».
٥٩- «رحلات في القارة الأوروبية».
٦٠- «الحل والرحيل . في بلاد البرازيل».
٦١- «في مهد الترك».
٦٢- «رحلات في البيت».
٦٣- «العودة إلى غرب إفريقية».
٦٤- «زيارة للمسلمين في الاتحاد السوفيتي».
٦٥- «في شرق البرازيل».
٦٦- «في الشمال الشرقي من البرازيل».
٦٧- «رحلات فنزويلية».
٦٨- «بقية البقية من حديث إفريقية».
٦٩- «خلف الستار الحديدي».
٧٠- «رحلات في شمال الهند».
٧١- «رحلات في وسط الهند».
٧٢- «رحلات في وسط الهند».
٧٣- «رحلات في غرب الهند».
٧٤- «تائه في تاهيتي».
٧٥- «نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض».
٧٦- «ذكريات المؤتمرات».
٧٧- «جولة في جزائر البحر الأبيض المتوسط».
٧٨- «مؤتمرات إسلامية حضرتها».
٧٩- «إطلالة على موريتانيا».
٨٠- «زيارة رسمية لتايوان».
٨١- «في جنوب البرازيل».
٨٢- «العودة إلى الصين».
٨٣- «في وسط الصين».
٨٤- «إلى أقصى الجنوب الإفريقي».
٨٥- «في أدغال أندونيسيا».
٨٦- «أيام في فيتنام».
٨٧- «مشاهدات في لاوس وكمبوديا».
٨٨- «العودة إلى ما وراء النهر».
٨٩- «في شمال شرق آسيا».
٩٠- «فوق سقف الصين».
٩١- «على سقف العالم».
٩٢- «إطلالة على استراليا».
٩٣- «في جنوب تايلند (فطاني)».
٩٤- «حديث قيرغزستان».
٩٥- «إلى جنوب الشمال: بلاد السويد».
٩٦- «إلى شمال الشمال: النرويج وفنلندا».
٩٧- «المستفاد من السفر إلى تشاد».
٩٨- «جولة في جزائر المحيط الأطلسي».
٩٩- «رحلتا المسافات الطويلة».
١٠٠- «حول العالم في خط مستقيم».
- «الإعتبار. في السفر إلى ماليزيا».
١٠٢- «راجستان: بلاد الملوك».
١٠٣- «بالي: جزيرة الأحلام».
١٠٤- «بلاد التركمن: الإديغي».
١٠٥- «بين بلاد القرتشاي، وبلاد القبرداي».
١٠٦- «العودة إلى داغستان».
١٠٧- «المكسيك وقواتمالا».
١٠٨- «بليز والسلفادور».
١٠٩- «هندوراس ونيكاراغوا».
١١٠- «أقطار البلطيق».
١١١- «من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء».
١١٢- «بلاد التتار والبلغار».

لا يباع بمفرده
جزء 2

مطابع الفرزدق التجارية - الرياض
تلفون: ٤٨٢٤٨٦٥ - ٤٨٢٤٩٨٣

ردمك: ٦-٢٤-٧٨٥-٩٩٦٠ (مجموعة
x - ١٩-٧٨٥-٩٩٦٠ (مج ٢)